الهروب الأخير

بيانات رواية الهروب الأخير:

- الرواية: الهروب الأخير
- الكاتب: أحمد المفلحي - الاسم الأدبي: خليفة المفلحي
- النوع: رواية
- تحرير وتدقيق وفكرة ولوحة الغلاف وكلمته: رياض حَمّادي
- تصميم غلاف: أمنية محمد
- إخراج داخلي: سليل الفراعنة
- المقاس: ١٤.٨×٢١ (a5)
- الناشر: مؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية، نوفمبر ٢٠٢٥
- رقم الإيداع في الهيئة العامة للكتاب، صـــنعاء: ٣٧٦ لســـنة ٢٠٢٤. رقم الإيداع في الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق، القاهرة: (٣٠٠٧٢/ ٢٠٢٥)
- الترقيم الدولي، بالتعاون مع دار دان:

978-633-8284-20-6

فازت هذه الرواية بجائزة الســـرد اليمني (حَزاوي) ٢٠٢٤، برعاية بنك اليمن والكويت. والرواية متخيل أدبي ولا تُعبر بالضرورة عن رأي كاتبها ولا رأي الجائزة وممولها.

حقوق هذه الطبعة محفوظة لمؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية وللمؤلف. يُسمح الاقتباس في حدود الدراسات والمقالات مع ضرورة الإحالة إلى اسم الكتاب وكاتبه وناشره "مؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية"، وما عدا ذلك من استعمالات يُرجع للناشر وللمؤلف لأخذ إذن خطي.

حزاوي HAZAWI جائزة السرد اليمني

YKB بنك اليمن والكويت يلهم المستقبل YKB Inspiring the future yk-bank.com

حزاوي HAZAWI للتنمية الثقافية

(روايـــــــة)

الهروب الأخير

تأليف

خليفة المفلحي

2025

إهداء

إلى كل شهيد أطل من ثرى قبره فبكى

❊ ❊ ❊

الفصل الأول
أغسطس 1994

"دينٌ قُضي، بيد أن هناك ديونًا أخرى لم تسدد بعد، ولا يمكن سدادها إلا مرة واحدة."

قالها مراد لأخيه الأصغر، ردًا على خبر اغتيال أبي مطيع حنش.

كان الوقت عصرًا، ومراد يجلس في إحدى زوايا مجلس منزله الصغير، المؤثث بأسلوب تقليدي. يتناول القات مستمتعًا بوقته، وسيجارة بين أصابعه، وأمامه على منضدة صغيرة قارورة ماء، وزجاجة كولا، وعلبة سجائر، وبين يديه كتاب، وفي رأسه أفكار تغذت من شغفه الطويل بالقراءة.

واصل أخوه، غير الشقيق، سرد القصة: شقيقان اغتالا القائد السابق في المقاومة، والذي أصبح مسؤولًا حكوميًا في السنوات الأخيرة، في كمين، أثناء عودته من مقر عمله في المحافظة. تقول الرواية المنقولة إنهما ترصدا له، بعد مراقبة امتدت لفترة، ثم أطلقا قذيفة (آر بي جي) أحرقت السيارة بمن فيها.

وضع مراد الكتاب جانبًا لسماع التفاصيل، لكن لم يكن لدى أخيه معلوماتٍ أكثر. استدرك شقيقه قائلًا: هناك من يؤكد أن منفذَي العملية هما نجلا رجل كان مغتربًا قبل تصفيته من قِبل الجبهة الوطنية، قبل نحو ثلاثة عشر عامًا، وكان المسؤول عن عملية الإعدام آنذاك هو أبو مطيع نفسه، الذي أصدر أوامر مباشرة بقتله.

"كائنًا من كان الفاعل، فلن يكون سوى منتقم مقهور"، هكذا أيقن مراد. وبما أنه لم يكن بعيدًا عن تلك الحادثة، فلم يلقَ عناءً ليستنتج أن الفاعلَين هما ابنا الأشهب، وقد انتقما لأبيهما وعائلتهما بعد سنوات من الفقد والتشرد.

الحياة حافلة بالمفاجآت بشكل دائم، والأخبار تأتي من حيث لا يتوقعها المرء. كان أبو مطيع قائده السابق، وأحد رفاق السلاح ذات زمن، لكن مراد لم يحزن لمقتله، ولم يتكلف التظاهر بالحزن. على العكس، شعر برضا داخلي؛ فما حدث كان تحقيقًا لعدالة آمن بها، بغض النظر عن هوية الشخص الذي تطاله.

لا يزال المشهد حاضرًا في ذاكرته. اقْتِيد الرجل أمام عينيه، وكانت تلك لحظة فاصلة في مسيرة الكفاح المسلح: صراعات، هزائم، خيانات، سقوط، مطاردات... تلك هي محاور الانتكاسات التي رافقته.

أطل من النافذة، وألقى نظرة على القرية من منزل عائلته الريفي، حيث استقر أخيرًا قبل نحو أربعة أعوام. رآها وقد تغيرت كثيرًا عما كانت عليه حين غادرها هاربًا من مطاردات السلطة. حاله اليوم لا يختلف عن القرية.

التغير أمر طبيعي؛ حصيلة سنوات مضت. لا شيء يبقى كما هو. لم يعد هو نفسه ذلك الشاب المغامر المليء بالحماس. لم يعد ينظر إلى الأمور بالعين نفسها. تجارب السنوات الماضية جعلته أكثر عقلانية. لم يعد ذلك الشاب القوي الوسيم والنشيط؛ بدأت تجاعيد خفيفة ترسم علاماتها على وجهه،

وتسلل بعض الشيب إلى شعره. أما قريته فقد تكاثرت فيها المنازل الحديثة واختلطت بالعتيقة التي رمُمِّت بعض أجزائها. ظهرت في الطراز الجديد نزعة واضحة إلى الاستقلالية، بدافع من رغبة الناس في الخصوصية، أكثر من ذي قبل. لم تعد البيوت متلاصقة أو تفصل بينها أزقة صغيرة، كما في الماضي. تباعدت المنازل، واُحيطت بأسوار منخفضة.

أسهم التيار الديني، الذي اجتاح المنطقة عقب هزيمة الجبهة، في تغيير ثقافة الناس. نشأت أفكار جديدة، معظمها متعلق بالنساء، تحذر من عادات الحياة السابقة وتحاربها، وتُكرّس بدائل تُسوّق بوصفها أكثر نقاءً. أعاد هذا التيار رسم أنماط الحياة بما يتفق مع رؤيته. شيئًا فشيئًا، بدأ الناس يميلون إلى العزلة والتباعد، حرصًا على الالتزام بالضوابط الشرعية، وخوفًا من الوقوع في المعصية.

أغلب تلك البيوت القديمة لا تزال مأهولة بأصحابها، وبعضها هُجِر، والبعض الآخر ظلّ مدمَّرًا، لتشهد على حقبة لا تُنسى من تاريخ المنطقة، أيامًا وسنواتٍ كان مراد ورفاقه جزءًا منها.

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني
1980 -1982

كان مراد واحدًا من خمسة شبان متقاربين في السن، اجتمعوا لأول مرة في فصل الشتاء، مطلع عام ١٩٨٠، تحت قيادة شاب يكبرهم بأعوام قليلة يدعى علوش. كان مراد حينها في الرابعة والعشرين من عمره. شاب يفيض حماسًا، مخلصًا للمبادئ التي دفعته إلى المقاومة والثورة التي اشتعلت مجددًا في المناطق الوسطى.

كانت تلك المرحلة الثانية من الكفاح المسلح، بعد أن كان الثوار قد وضعوا سلاحهم طواعية، وانصرفوا إلى أعمالهم في الحقول لبضع سنوات، استجابة لتوجه الرئيس ابراهيم الحمدي، الذي حقق مطالبهم وأوقف حملات النهب على مناطقهم. لكن بعد اغتياله انتفض أهالي المناطق الوسطى من جديد حين رأوا أن حقوقهم أُهدرت من جديد، وأن الوضع عاد إلى سابقه. تشكلت الجبهة مجددًا، لكن هذه المرة بشكل أكثر تنظيمًا، بقيادة أحزاب وتنظيمات يسارية، وبدعم كامل من النظام الاشتراكي في الجنوب.

ضمن آلاف المقاتلين المتطوعين في المناطق الوسطى، الذين انضموا إلى الجبهة الوطنية لقتال الحكومة، في منتصف السبعينيات، كان هناك خمسة رفاق: علي، وذياب، وسعيد، وعبدالله، ومراد. كان علوش قد التقى بكل واحد منهم في وقت سابق، وعلى فترات متباعدة، ضمن مهمته في تأسيس قوة

مسلحة ممن تتوفر لديهم الرغبة في الانضمام إلى المقاومة. وقد كلفه القائد أبو مطيع حنش، قائد المنطقة، بالإشراف على هذه المجموعة.

كانت المسافة التي تفصلهم عن المعسكر تبعد نحو عشرين كيلومترًا. هناك، في الجنوب من مناطق الصدام المباشر مع الجيش، وعلى قمة أحد الجبال المنخفضة، يتمركز المقاتلون السابقون. يتميز الجبل بتضاريس منبسطة تتيح مساحة كافية لتخزين المعدات والأسلحة الثقيلة، كما تتيح إطلالته مراقبة ما يحيط به، وإن كان يقع على مسافة بعيدة نسبيًّا من خط المواجهة. ولهذا، لم يكن واضحًا بعد ما إذا كانت مشاركتهم في القتال ستكون دائمة أم محدودة.

كان الوقت ظهرًا، والجوُّ يميل إلى الدفء، حين مضى الستة سيرًا على الأقدام، يجتازون سفح أحد الجبال، حاملين أسلحتهم وأمتعتهم.

بعد مسيرٍ دام قرابة ثلاث ساعات، بلغوا منطقة سهلية خالية من السكان، تكثر فيها الأشجار البرية. توقفوا هناك للاستراحة وتناول الطعام تحت شجرة طلح كبيرة، يمتد ظلها لمساحة تتسع لهم جميعًا. جلسوا في الظل رغم اعتدال الجوّ. أسند بعضهم ظهورهم إلى جذع الشجرة الضخم، واتكأ آخرون على أحجار شبه ملساء، ثم شرعوا في تناول وجبة بسيطة من أقراص الذرة وخبز القمح مع الماء. تبادلوا الحديث وكأنهم يعرفون بعضهم منذ زمن بعيد، ما عدا سعيد، الذي ظل صامتًا أغلب الوقت، لا يتكلم إلا عند الضرورة، أو إذا سُئل، وكان يجيب باقتضاب.

كان علي شابًا متوسط الطول، قوي البنية، بشعر طويل تتخلله خصلات بنية ملتفة. أما ذياب، فكان نحيفًا، أبيض البشرة، ذا شعر أسود كثيف، مرحًا بطبعه، محبًّا للدعابة، سريع الاندماج مع الآخرين. وسعيد، طويل القامة، حاد النظرات، معروفٌ بتجهّمه وقلة كلامه. وعبدالله، شاب وسيم، ممتلئ الجسد قليلًا، تبدو عليه آثار الرفاهية. وكان خامسهم مراد.

قال ذياب وفمه مملوء بخبز الذرة:

- منذ أن كنت صغيرًا، لم أحب قرص الذرة هذا. أتناوله مضطرًا لعدم توفر البديل.

أخذ رشفة من الماء، ثم أضاف:

- بعد أن سئمت من الخبز نفسه كل مساء، كنت أطلب من أمي أن تقدم صنفًا آخر."

فكانت تجيب:

- "احمد الله على النعمة يا بني، فما بين يديك الآن لم نكن نحصل عليه إلا بصعوبة في الماضي، وحين لم يكن يكفينا ننام جياعًا."

كنت أقول لها:

- أنا أيضًا أنام جائعًا يا أمي؛ نتناول هذا يوميًا منذ أكثر من عشرين عامًا ولا أشبع! لا شك أن بقرتك هي الوحيدة التي تشبع في هذا المنزل.

استطرد مخاطبًا رفاقه:

- الآن فقط أدركت صحة كلام أمي؛ مع شدة الجوع والتعب، يصبح قرص الذرة لذيذًا، حتى أنني مستعد لالتهام كل ما لديكم من خبز."

قال علي:

- عاش آباؤنا حياة قاسية، يكافحون من أجل البقاء، يعملون طوال النهار في الحقول، ويرعون الماشية ثم لا يجنون سوى ما يسد رمقهم. أما الرفاهية فلم تكن في متناولهم.

هزّ علوش رأسه موافقًا وقال:

- الحقيقة أن الظروف لم تتغير كثيرًا حتى اليوم. لا تزال مصادر الدخل محدودة للغاية، ولولا الهجرة لما تحسن دخل بعض الأسر ولو قليلًا.

قلَّب مراد كفّيه متسائلًا:

- إنتاج الفلاحين هو مصدر غذاء العالم، ويُقدم بإسراف على موائد الأثرياء، فيما يعاني الفلاحون أنفسهم من الفاقة والجوع! هناك خلل واضح في العدالة في هذا العالم!

أضاف عبدالله:

- ورغم كل هذا تأتي الحكومة لتستقطع من أموالنا، وتنتزع ما ننتجه، فتأخذ منا الجبايات بمسميات مختلفة!

قال ذياب:

- ناهيك عن الحملات المسلحة التي تباغت القرى بين الحين والآخر، فتنهب ممتلكات الأهالي، وتعيث فيها فسادًا أمام مرأى ومسمع الدولة!

علَّق مراد:

- لكن المقاومة وضعت حدًا لتلك الحملات. لم تعد تجرؤ على الاقتراب من مناطقنا، نحن هنا للانتصار لحقوق الفلاحين حتى لا يظلوا مجرد آلات تعمل من أجل رفاهية الأثرياء.

قال علوش:

- مهمتنا هي فرض الواقع الجديد الذي تتحدثون عنه، وهذا له ثمن قد يكون حياتنا. عليكم أن تكونوا مستعدين للتضحيات.

بحماس وانفعال، اقتبس مراد مقولة لتشي جيفارا:

- "إن الثوار يملؤون العالم ضجيجًا، كي لا ينام العالم بثقله على أجساد الفقراء." ثم أضاف وهو يضرب الأرض بعصًا كانت في يده: علينا إذًا أن نملأ العالم ضجيجًا، حتى نتحرر من توحش البرجوازية والرأسمالية. طبقة البروليتاريا هي من ينبغي أن تحكم.

ظلّ سعيد صامتًا، أحيانًا يتفاعل بنظراته إلى المتحدثين، وأحيانًا يسرح ذهنه في تأمل عميق. ولما لاحظ مراد حاله، ظن أنه غير معني بما يقال، فرفع

حاجبيه مستنكرًا وسأله:

- الرفيق سعيد... أين أنت من كل هذا! أيجوز لنا أن نسمع صوتك؟

أجابه سعيد بلا مبالاة:

- لا أفهم هذه الكلمات، لكني أتيت للقتال لأسباب أراها كافية للموت في سبيلها، إن قُدِّر لنا الموت، أو الحياة بشكل أفضل.

أيده ذياب بقوله:

- لا أظنني فهمت أيضًا، لكني على ثقة بأن نجاح الثورة سيُحدث تغييرات في حياة الناس، أقلّها إضافة أطباق أخرى إلى موائدهم.

قال علوش:

- أمامنا فرصة عظيمة، بعد أن انتشرت الثورة في أرجاء واسعة من البلاد. ها هي المعارك المشتعلة في تعز وإب والبيضاء تمتد شمالًا لتصل إلى ذمار ومأرب والجوف وريمة وعُتمة وغيرها من المناطق. الثوار والمؤيدون في كل مكان، ونظام صنعاء صار بين فكي كماشة، بالذات بعد أن خسر حربه مع الجيش اليمني الجنوبي. إنها مسألة وقت لتتحقق للشعب تطلعاته.

قال مراد:

- حتى في الجيش، هناك جنود وضباط يؤيدون الثورة.

هز علوش رأسه مؤيدًا، ثم قال وقد شعر أن الوقت يداهمهم، والطريق لا

يزال طويلًا:

- حسبنا هذا القدر من الراحة. لنمضِ الآن. نحن في منطقة آمنة، لكن يجب أن نسير بحذر، خاصة قرب القرى التي يعادي سكانها المقاومة. علينا ألا نغفل عن أي حركة مريبة، وألا نبقى مكشوفين لأي متربص.

نهض الجميع، وانطلقوا يسلكون طرقًا وعرة، عبر منحدرات وصخور ووديان، وبين أشجار ونباتات تختبئ بينها الزواحف، حتى بدأت الشمس تغيب تدريجيًا.

ومع حلول الظلام، اشتد البرد، وأمست الرؤية أكثر صعوبة. فأبطأوا من وتيرة سيرهم. في البداية، طلب منهم علوش التوقف عن استخدام المصابيح، خوفًا من انكشاف أمرهم لأي طرف معادٍ، لكن الظلام الحالك، وبُعدهم عن المناطق المأهولة، ووعورة الطريق، دفعهم لاستخدام بعضها.

سأل علي:

- ألم يكن من الأفضل أن نسلك الطريق المستوية أسفل المنحدر، بما أننا نسير بموازاته؟

أجابه علوش:

- صحيح، لكن لو فعلنا، لاضطررنا لاحقًا إلى تسلق مرتفع خطر وصعب لنبلغ هذا العلو الذي نحن عليه الآن.

كانت معظم المنحدرات الصخرية الملساء تنتهي بهاوية سحيقة، والسير عليها من أخطر ما يهدد سلامتهم، وهو ما حدث حين داس أحدهم على حجر رخو، فانزلقت قدمه وترنح ثم تدحرج إلى شفا هاوية، ومنها سقط صارخًا وسُمع صوت ارتطامه، ثم صرخ مرة أخرى قبل أن يختفي صوته.

فزع الرفاق وهرعوا غير مدركين ما عليهم فعله. تفقدوا بعضهم فعرفوا هوية رفيقهم. هبطوا المنحدر بخذر وبحثوا عنه بين الصخور والنباتات، مستدلين على مكانه من خلال صوت أنينه. وصلوا إليه واحدًا تلو الآخر. وجدوه ممددًا على أرض ترابية مختلطة بالحصى، تنمو فوقها نباتات الصبار والحنظل البري، وتحف بها صخرتان كبيرتان. كان علي قد ارتطم بإحداهما أثناء سقوطه، فخففت من سرعة اندفاعه وغيرت اتجاهه قبل أن يتدحرج ويهوي إلى الأرض الترابية.

حملوه بحذر، خوفًا من أية كسور، قد تتضاعف إن رُفع عشوائيًا. صعدوا به إلى الأعلى بصعوبة، ثم وضعوه على الأرض وهو يتألم. تبين لهم أنه مصاب بكسر في ساقه، إضافة إلى رضوض وجروح متفرقة من جسده. باتت قدرته على متابعة السير مستحيلة، فحملوه بالتناوب على أكتافهم، وفي المعسكر سيجد العناية اللازمة كما طمأنهم علوش.

وهم في حالة من الإعياء الشديد، انطلقوا حاملين رفيقهم. لم تبق أمامهم سوى مسافة قصيرة، لكنها كانت الأصعب، ورغم ذلك استجمعوا قواهم، ومضوا حتى وصلوا المعسكر بعد منتصف الليل بقليل، وقد أنهكهم التعب.

كان ذياب آخر من حمله، وكاد، في اللحظات الأخيرة، أن يُسقطه ويسقط معه من فرط الإنهاك.

❊ ❊ ❊

الفصل الثالث

استقر الرفاق في إحدى الدُّشم[1]. المنتشرة على امتداد المعسكر، والتي شُيِّدت بأيدي أفراده. يبلغ ارتفاع الدشمة طول شخص متوسط القامة.

في الظلام، جثا قربه رجل أربعيني على ركبتيه، تنعكس في ملامح وجهه طيبة ممزوجة بالجدية. كان هذا الرفيق يملك خبرة في الإسعافات الأولية ومعالجة الجرحى، اكتسبها من دورات تدريبية التحق بها أثناء إقامته في مدينة عدن. بدأ بتنظيف جروح عليّ، ثم صنع له جبيرة من لحاء شجر جاف، لفها بخرقة بالية، وربّت على كتفه مطمئنًا:

- تحتاج إلى بضعة أسابيع من الراحة لتستعيد قدرتك على المشي.

سأله عليّ:

- هل الإصابة سيئة؟

- لن تكون أسوأ من الإصابات القادمة.

تلك الليلة، غطّ الرفاق في نوم عميق، باستثناء عليّ الذي حرمه الألم من النوم. مع بزوغ الشمس، بدأ رفاقه يستيقظون تباعًا من نومهم المثقل بالإرهاق. تناولوا فطورهم: فول وكدم مع قهوة أعدّها زملاؤهم في المعسكر، وقد قُدمت في علب فول فارغة. بعد ذلك، تجمّع أفراد المعسكر

(١) الدشمة: بناء صغير يشبه الكوخ.

جميعًا، بمن فيهم عليّ الذي اتكأ على أكتاف رفاقه حتى بلغ مكان الاجتماع. هناك، افترشوا الأرض، وأعينهم تتجه نحو القائد أبو مطيع حنش، الذي ارتقى كومة ترابية وبدأ يخاطبهم:

"تدركون أننا نسير في طريق مليء بعقبات نصبها لنا أعداء ثورتنا الشعبية، واهمين أن بوسعهم بذلك إيقاف إرادة الناس وتطلعاتهم نحو العدالة والحرية والوحدة. لكنهم يجهلون أن هذه الثورة عصية على الانكسار أمام أيادي الرجعية والفساد. سنمضي نحو أهدافنا معًا، غير أن ذلك لن يتحقق ما لم نُزِح هذه العقبات من أمامنا أولًا، حتى نسير دون أن نخشى طعنات الغدر في ظهورنا. وأول هذه العقبات وأخطرها هم العملاء والخونة، أولئك الجبناء الذين من أجلهم نفترش الأرض ونلتحف السماء في الجبال والشعاب والوديان، ونواجه الموت بينما هم يتخابرون مع السلطات ويوجهون سهامهم إلى ظهورنا. أتحدث عن فئات من المواطنين اختارت طريق الخيانة، منهم بعض (المشايخ) الذين يتزلفون للنظام ويخدمونه بإمداده بالمعلومات والتخابر ضد الرفاق، بغية القضاء عليهم، لتخلو لهم البلاد من الشرفاء والأبطال، ولا يبقى سوى اللصوص وأتباعهم. هؤلاء هم العدو الأول، ومن ينبغي علينا محاربتهم لتمهيد طريق الثورة حتى النصر. نحن لهم بالمرصاد،

ولدينا من الرجال من يمدنا بالمعلومات اللازمة عنهم، مما يسهل علينا ملاحقتهم والقضاء عليهم."

أنصت مراد لحديث القائد بشيء من التوجس؛ فقد شعر بأنه يحرض المقاومة ضد الأهالي ويدعوا إلى فتح جبهة حرب داخلية أكثر ضراوة من الحرب القائمة ضد السلطة!

رفع يده مستأذنًا بالكلام ثم سأل:

- أليس من الأجدر ألا نصنفهم كَعدوّ أول وهناك قوة أخرى تحاربنا بالجيش والأسلحة؟

نظر القائد إلى مراد وأطال النظر إليه قبل أن يجيب:

- أتحدث هنا عن استراتيجية الحرب، وعن أولوية البدء من المكان المناسب، لا عن حجم القوة.
- وماذا عن الرجال الذين تحدثت عنهم؟ هل معلوماتهم عن الأهالي المتعاونين مع السلطة أكيدة؟

سأل مراد فارتسمت على وجه القائد ملامح ضيق من أسئلة الوافد الجديد، ثم أجاب بلهجة حاسمة:

- إنهم رفاق... وهذا التعريف وحده يكفي لتعرف من هم. الرفاق دائمًا جديرون بالثقة.

أبو مطيع، رجل في أواخر الأربعينات، تخلُو مقدمة رأسه من الشعر، وربما

لذلك يطيل شعر بقية رأسه. حليق اللحية، كثّ الشارب، ذو هيبة وحضور طاغٍ، غير أن شخصيته يكتنفها الغموض؛ إذ لا يقدّم لأفراده سوى ما يلزمهم من معلومات لإنجاز مهامهم، ولا يعرف تفاصيلَ حياته إلا قلة منهم. يُقال إنه عاش حياة بائسة بعد مقتل والده وعدد من إخوته في حرب قبلية، وتعرّضت أسرته للإذلال والتنكيل، فشبّ على الشدة وحدة الطباع.

كان علوش قد حدّث رفاقه الجدد عنه في وقت سابق، ثم عرفه عليهم صباحًا، قبل أن يلقي خطابه. أخبرهم بأنه قائد الموقع ورئيس جميع الفصائل في منطقته، وأن كلمته هنا هي العليا، موصيًا إياهم بالالتزام بتعليماته.

❊ ❊ ❊

الفصل الرابع

قبل الغروب، في قرية (الخشعة)، وسط حوش منزل مؤلف من طابقين، مبني على مساحة صغيرة، ضمن مجموعة منازل متقاربة تقع على سفحٍ منخفضٍ بأحد المرتفعات الصغيرة، وعلى مسافة غير بعيدة منه ثمة إطلالة على وادٍ صخري. بخطوات متثاقلة مشت فاطمة باتجاه باب المنزل حاملة بين يديها وعاءً معدنيًا يحوي حليب بقرة.

من يعرفها قبل اليوم لن يعرفها الآن؛ فقد غدت شبحًا يلفّه سواد تنظر من خلاله إلى الحياة بعينين لا وميض فيهما إلا حين ترى وجهي طفليها. كانت تخشى عليهما من السوء في هذه الحياة الموحشة، حيث لا يدري المرء من أين تباغته الأخطار.

أشهرٌ ثقيلة مرت عليها جعلتها تبدو أكبر من عمرها الذي تجاوز العشرين ببضع سنوات. كانت يومًا ذات جمالٍ أخاذ وأناقة لافتة، يميزها حَوَرُ عينيها، دائمة الضحكة، مليئة بالأمل والرضا، تنشر البهجة في كل مكان. أما الآن، فقد بدّد الحزن بريقها، وسلبها الجذل الذي كانت تعرف به، بعدما استسلمت لليأس، واستحكمت بها هموم تثقل خطوات حياتها.

"يونس... يونس!" نادت ابنها الصغير، تطلب منه أن يصطحب أخته إلى الداخل، وقد بدأ الليل يرخي سدوله على القرية، وصدحت الجداجد بأصواتها في الأرجاء.

أجابها يونس: "نعم يا أمي، سنأتي حالًا. إننا نجلب الماء لجدي."

علّقت "الجحف"[٢] في المعلاق الخشبي على جدار الغرفة، بعد أن سكبت فيه الحليب من الإناء. أشعلت ذبالة السراج، وملأت خزانَه الزجاجي الصغير بالقاز، ثم جلست تنتظر طفليها. دخلا وجلسا على فراش قديم في انتظار وجبة العشاء مع باقي أفراد الأسرة.

التفوا حول مائدة صغيرة على الأرض لتناول فتّة قرص الذرة المغمس بالحليب الساخن والسمن. سأل يونس جده إن كان هو أو جدته سيحكيان لهما حكاية جديدة. أجابه الجد:

- لقد حكيت لكما كل القصص التي أعرفها يا صغيري، كما أنني أشعر بالنعاس. سأحاول غدًا أن أتذكر قصة، أو أعيد سرد قصة رويتها لكما سابقًا.
- وماذا عنك يا جدتي؟

قبل أن تجيب الجدة تدخلت الأم قائلة:

- دع جدك وجدتك يستريحان الليلة يا حبيبي. سأحكي لكما قصة أعرفها.

نام الطفلان بعد العشاء وسماع قصة ارتجلتها الأم في حينه، فهي لا تحفظ الحكايات كجديهما، ولا تجيد سردها مثلهما. وقد بدا ذلك في وجهي

(٢) الجحف: ثمرة القرع، يتم تجويفها من الداخل لحفظ منتجات الحليب.

الصغيرين، إذ لم يتأثرا بالأحداث، ولم تدهشهما النهاية. كل ما كان يشغل فاطمة هو أن تفي بوعدها لهما، فهما أغلى ما تملك في هذا العالم.

كان الجدان قد أويا إلى فراشهما في الغرفة المجاورة بالدور الأرضي، أما فاطمة فتأخر نومها؛ فالنوم لا يطاوع المكلومين. وفي القرى، كثيرًا ما يكون الليل طويلًا ومملًا، ولا شيء يُفعل على ضوء السراج الخافت سوى تبادل الحديث عن تفاصيل اليوم، وهي غالبًا أحاديث مكررة، ومع ذلك لا يمكن تجاوز الليل دونها. ورغم ما فيه من ملل، يبقى الليل ملاذًا مريحًا لأجساد الفلاحين المرهقة بعد نهار شاق في الحقول ورعاية المواشي وشؤون البيت.

يقضي الناس نهارهم في العمل منتظرين الليل ليستريحوا، ثم يأتِي الليل فينتظرون الصباح ليتحرروا من ملل الظلام وأوجاع الذكريات، حتى تنقضي حياتهم في هذه الدائرة الضيقة. أما فاطمة، فالليل عندها شيء آخر، أشد وطأة لأسباب مختلفة، حتى غدت تتمنى لو أن النهار يمتد بلا غروب.

خفضت ضوء السراج، وفي طريقها إلى الفراش، تسلّل إلى سمعها ذلك الصوت الهامس المبحوح، قادمًا من النافذة الصغيرة:

"فاطمة.. فاطمة"

أيقنت أن الأمور ماضية على هذا النحو، وأن لا أمل في أن تنتهي بخير. اجتاحها رعب شديد ورعشة برد في مفاصلها. في كل مرة تسمع الصوت، تفقد السيطرة على ثباتها، وكأنها تسمعه للمرة الأولى، ولا تدري كيف

تتصرف أمام هذا الموقف الذي يتكرر كل ليلة مع قرع خفيف على مصراعي النافذة الخشبية.

عاد الصوت من جديد:

"فاطمة، افتحي... أعلم أنك تسمعينني."

حاولت أن تتماسك وتتجاهله، لكن إلحاحه كان يرعبها أكثر كل مرة. التزمت الصمت حتى انقطع الصوت وغادر، مثلما يفعل كل ليلة حين ييأس من ردّها.

في صباح اليوم التالي، قررت أن تبيت مع طفليها في إحدى غرف الطابق العلوي. استأذنت عمها، والد زوجها، فوافق من غير أن يسألها عن السبب، ولم تخبره هي بدورها.

❊ ❊ ❊

الفصل الخامس

مضى شهر تقريبًا منذ قدوم الرفاق إلى الموقع. ذات أصيل خرج مراد من الدشمة بعد توقف هطول المطر، ليستمتع بجريان السيل في المنحدرات والأودية، ويتأمل بزوغ الشمس مجددًا من بين السحب وقد انعكس ضوؤها على الأفق مكوّنًا ألوان قوس قزح. جلس عند حافة القمة، يتأمل المشهد ويدخن سيجارة تلو أخرى، ناظرًا إلى أسفل الجبل المنخفض حيث تتزاحم البيوت على السفح، وحولها مدرّجات زراعية تعانق السيول القادمة من السواقي، وتبشّر بموسم حصاد وفير. كان المنظر أخّاذًا بطبيعته الحالمة ونسيم المرتفعات البارد، وهو يحرّك أوراق الشجر والنباتات ويداعب شعر رأسه برفق.

حدّث نفسه متسائلًا:

"كيف لأرض بهذا الجمال والخصوبة أن تُشقي أهلها؟ لماذا لا يعيش هؤلاء الناس في رفاهية، وقد وهبهم الله أسباب العيش الكريم؟ إنهم يمنحون الأرض كل ما لديهم، فلماذا تمنحهم القليل؟"

ثم انسابت تساؤلاته إلى خيالات تبشر بغد أجمل تحمله الثورة.

مرّ الوقت وبدأ البرد يتسلّل إلى جسده، وبعد أن أنهى تدخين آخر سيجارة، أخذ يعدّ أعقاب ما دخّنه، متمنّيًا أن يكون العدد أقل مما يظن؛ فقد أصبح

يدخن بكثرة من غير أن يشعر، حتى ليخيّل لمن يراه أن السيجارة جزء من كفّه. تساءل إن كان التدخين يزيد متعة التأمل أم يسلبه لذته. ثم نهض وعاد إلى رفاقه في الدشمة.

كان عليّ قد بدأ يتعافى من إصابته، ورفاقه حوله يؤنسونه ويطمئنون عليه. جلس مراد معهم، وفي تلك اللحظة بادر عبدالله قائلًا:

- أتذكرون ما قاله لنا سعيد قبل أيام عن الأسباب التي يراها كافية للموت من أجلها؟ نحن هنا من قرى مختلفة، جمعنا هدف واحد، لكن الأسباب مختلفة... ما رأيكم أن يحكي كلٌّ منا دوافع انضمامه للثورة؟

قال علوش:

- لكل واحد منا سبب وربما قصة. سمعتُ من كثيرين روايات مختلفة، تُظهر تباين أفكارهم حول القضية. لكن، وللأسف، في الآونة الأخيرة انضم إلينا بعض الانتهازيين والمتسلقين، يسعون وراء مصالحهم الخاصة أو لتصفية حسابات مع خصومهم من الأهالي.

أثار كلام علوش في ذهن مراد خطبة القائد أبو مطيع، فسأل بدهشة:

- ولماذا يُقبل هؤلاء أصلًا؟

أجاب علوش:

- كيف لنا أن نميز بين هذا وذاك؟ غاياتهم ليست معلنة.

قال مراد:

- لكن الأمر لم يعد سرًا؛ ها أنت تخبرنا عنهم! فلماذا يستمرون في صفوف ثورة لا يؤمنون بها؟
- نكتشف نواياهم لاحقًا من خلال تصرفات متفرقة توحي بذلك، بعد أن يكونوا قد ارتبطوا بالجبهة.
- وماذا يعني هذا؟ ألا يمكن إنهاء هذا الارتباط؟
- المسألة معقدة يا مراد. نحن نواجه جيش دولة منظم، والجبهة بحاجة إلى مقاتلين. ولو تم طردهم ربما يلتحقون بالطرف الآخر. هكذا تفكر القيادة... وإن كان الأمر لا يروق لي.

هز مراد رأسه وقال بحدة:

- بهذه الطريقة ستصبح الجبهة ملاذًا للوصوليين والخائفين. حين يجد شخص خصمه قد استقوى بالمقاومة، لن يجد مخرجًا سوى الاحتماء بها، فيجتمع الأعداء تحت راية واحدة! كيف نحارب بهؤلاء جيش السلطة؟
- أتفق معك، لكن هذه حالات نادرة. انظر إلى هؤلاء الشباب مثلًا، إنهم يمثلون جوهر الثورة، ولكل منهم دافع نبيل. نحن هنا نموذج... لو روى كل واحد منا دوافع انضمامه للجبهة، لظهر لنا نُبل القضية التي ندافع عنها.

ثم التفت إلى ذياب قائلًا:

- ما رأيك أن تبدأ أنت يا ذياب.

تفاجأ ذياب وقال بارتباك:

- أنا؟ ولماذا أنا؟ ثم لوّح بيده في إشارة لرفضه وأضاف:

ليبدأ أحد غيري، أنا لا أحب المبادرات ولا السير في المقدمة... تحدث أنت يا علي، وسأكون التالي.

ابتسم علي وقال:

- لا مشكلة، أتحدث أولًا أو آخرًا، الأمر سيّان.

❊ ❊ ❊

الفصل السادس

هذا الصباح ليس كأي صباح بالنسبة لمهيب، العائد إلى بلاده بعد غياب طويل. إنه أول فجر يشرق عليه في وطنه منذ عامين ونصف، فجر تتنفس فيه الذكريات، وتعود فيه الطرق والوجوه والروائح لتحتل قلبه دفعة واحدة.

قبل أشهر، تحديدًا في فجر يوم صيفي من يوليو، هبطت طائرة في مطار صنعاء. وانساب الركاب نحو الصالة الخارجية، وكان مهيب بينهم. مهيب هو الابن الأكبر لعائلة عابد الحاج، وهي أسرة تعيش في أعماق الريف، حيث الحقول تحيط بالبيوت، وحيث الصمت أصدق من الكلام.

تبدأ حكاية مهيب قبل تسع سنوات، حين لم يكن قد تجاوز التاسعة عشرة. ركب قاربًا نحو السواحل الجيبوتية في مغامرة غامضة، مدفوعًا برغبة في اقتناص فرصة عمل تنقذ أسرته من ضيق الحال. كانت الهجرة يومها حلمًا يراود كثيرين ممن ضاقت بهم أرضهم، وفتح لهم البحر أبواب المجهول.

من جيبوتي، واصل رحلته إلى أوروبا، ليستقر به المطاف في إنجلترا، حيث حصل على الإقامة والعمل، وتمكن من إرسال مبالغ مالية منتظمة لأسرته لتغطية نفقاتهم. كانت أخباره المطمئنة تصل إلى والديه، فيهدأ قلقهما رغم شوقهما العميق لرؤيته.

عاد بعد عامين، تزوج، ثم سافر من جديد، وظل على هذا الحال، يتنقل بين

القرية وأوروبا، حتى أصبح أبًا لطفلين؛ الأكبر في السادسة، وشقيقته الصغرى في الرابعة.

في صباح ذلك اليوم، خرج من بوابة المطار إلى موقف سيارات الأجرة، تلفت باحثًا عن وسيلة تقله إلى محطة الخطوط الطويلة التي تربط المدن. ومن هناك، استأنف رحلته نحو قريته، مدفوعًا بشوقه ولهفته للقاء أحبته بعد غياب طال هذه المرة.

لم يخطر لمهيب أن يقضي ليلة في صنعاء ليستريح من عناء السفر. كان قلبه يدفعه جنوبًا، نحو قريته، وكأن كل دقيقة تأخر تسرق منه جزءًا من الفرح الذي ينتظره. في الطريق، ظل ذهنه مشغولًا بصورة اللقاء، هو الذي حرمته الغربة من أن يرى طفليه يكبران أمام عينيه، ويملآن البيت ضحكًا وركضًا.

لم تفارق مخيلته تلك اللحظة التي سيضمّهما فيها إلى صدره، يتفحص وجهيهما وقد تغيرت ملامحهما منذ آخر مرة، ثم يجلس معهما في ليلة سمر عائلية، يحكي لهما عن رحلته، عن المدن البعيدة، عن الغربة وما حملت له من قسوة وحنين. تخيل السعادة وهي تتسلل إلى أركان البيت، كما تفعل دائمًا حين يعود الطائر المهاجر إلى عشه.

في بيت العائلة كانت أخبار وصوله قد سبقته إليهم معلنة موعد الوصول. الدار ينبض بالحياة، حركة غير اعتيادية مدفوعة بانفعالات الفرح. بدت زوجته في أوج سرورها منتظرة ساعة اللقاء بعد فراق وأشواق أتت على الكثير من

حسابات السعادة. أخيرًا سوف تُكافأ بجزء من السعادة التي تستحقها. تأنقت وتألقت وأضافت لجمالها الطبيعي جمالًا من زينة وملابس أعدتها لوصول والد طفليها.

والداه وإخوته أيضًا ينتظرونه، وكأنهم بحاجة إلى ميناء آمن ترسو فيه أحزانهم قليلًا، مكان يستريحون فيه من قسوة الأيام. كانوا يدركون أن اللقاء مؤقت، وأن الفراق سيأتي من جديد، لكنهم أجمعوا على أن اللحظة لا تُفسد بانتظار حزن لم يحن أوانه بعد.

انطلقت سيارة اللاند روفر، تحمل على سطحها صندوق الأمتعة المليء بحقائب وأكياس المسافرين، وعلى مقاعدها وجوه متعبة من السفر. وبالرغم من رغم سرعة السيارة، إلا أن قلب مهيب كان يشعر أنها أبطأ مما يجب. ظل يطالع الساعة ويحثها على الدوران ويحسب الساعات والدقائق التي تفصله عن البيت. الطريق شبه فارغ، تمر سيارة كل حين، إما في اتجاههم أو في الاتجاه المقابل، بينما الرياح الجافة تعبث بوجهه القادم من برد الشمال نحو دفء الجنوب.

تجاوزوا نقاط تفتيش عديدة، تتفاوت دقة التفتيش فيها من واحدة إلى أخرى، وواجهوا خلالها سيلًا من الأسئلة للتأكد من هوياتهم: من أين جاؤوا؟ إلى أين يذهبون؟ ما توجهاتهم السياسية؟ هل يعرفون أحدًا من "المخربين"؟ وأسئلة أخرى لن تكشف للعسكر شيئًا يبحثون عنه حقًا.

تنتهي التحقيقات ليستأنفوا المسير، حتى بلغوا نقطة يشتهر قائدها بين العابرين بغطرسته وتعاليه على المسافرين. صادف أن كان في نوبته أثناء مرور السيارة التي تقلّ مهيب ورفاقه.

هناك، تقدم ضابط بدين كثّ الشارب، منفوش الشعر، ترتخي بعض أزرار قميصه، ولا يبدو عليه أثر الهندام أو النظافة. اقترب من السائق عبر النافذة الجانبية، وأمره أن يركن السيارة على جانب الطريق. ثم، وبنبرة لا تخلو من الاستعلاء، أمر الركاب بالترجل.

بينما انشغل الجنود بتفتيش الأمتعة، أخذ الضابط يتفحص هويات المسافرين. كان مهيب يحمل جواز سفر، أبرزه بثقة، بينما أغلب الركاب لا يملكون أي وثائق ثبوتية. وبما أن هذا الضابط المتغطرس يحمل ما يكفي من الحقد لافتعال المشاكل وتلفيق التهم، فقد تناول الجواز وأخذ يقلّب صفحاته بتمعن، ثم نظر إلى مهيب قائلًا:

- أنت منهم إذن!

استغرب مهيب من سؤاله وقال:

- من هم؟ لم أفهم!

قال الضابط بحدة:

- من عصابة المخربين الذين يطلقون على أنفسهم (مقاومة)، أولئك المتمردون الخارجون على القانون في مناطقكم.

- ليس لي علاقة بأحدٍ منهم. أنا في الخارج منذ سنوات، وآخر مرة كنت هنا كانت قبل عامين ونصف. بإمكانك التأكد بنفسك من أختام وتواريخ السفر.

نظر إليه الضابط باستخفاف مشوب بالكراهية وقال:

- تتظاهر بالبراءة وكأنها المرة الأولى التي تسمع بهم. أنت من المنطقة نفسها التي ينتمي إليها أولئك الجبناء، ولا بد أن تربطك ببعضهم صلة ما.
- قلت لك، لا علاقة لي بهم.
- اخرس... وانتظر هنا.

اتجه القائد نحو مبنى صغير وهو يحمل جواز سفره، غير مبالٍ برجاء الركاب في استئناف الرحلة.

في تلك الأثناء كان الجنود قد انتهوا من تفتيش الأمتعة بدقة مفرطة، ما استغرق وقتًا أطول مما ينبغي. تركوا أغراض المسافرين مبعثرة، وأثناء انتظار جواز مهيب كانت سيارات أخرى قد وصلت، ثم أتمت إجراءاتها وعبرت.

طال وقت الانتظار على مهيب وهو يتعجل الوصول إلى منزله. ظل واقفًا، يشعر بحرج من السائق والركاب الذين تأخروا بسببه. كل دقيقة تمر كانت تُفاقم شعوره بالغضب والقهر، وكلما ازداد قائد النقطة في تجاهلهم، راودته رغبة في التهور، لكن عقله كان يحثه على ضبط نفسه.

ظل ضابط نقطة التفتيش جالسًا في المبنى، مستمتعًا بإذلال مهيب ومن معه، حتى بدأ صبر الأخير ينفد. عندها تقدم إلى عتبة المبنى، وقال بهدوء متحكم فيه، تخالطه نبرة غيظ:

- من فضلك.. هل يمكنني استعادة جواز سفري لنواصل رحلتنا؟

رد عليه باستخفاف دون أن يرفع بصره نحوه:

- عد إلى حيث كنت واقفًا هناك، ولا تقترب حتى أناديك.

- ما من سبب يدعوا لتأخيرنا، لسنا مدانين بشيء، ونريد متابعة الطريق. ليس من حقك احتجازنا كل هذا الوقت بلا سبب.

نهض القائد من مكانه، وخرج إلى حيث كان مهيب واقفًا. اقترب منه بوجنتين منتفختين من الغضب وقال بصوت هادئ مصطنع:

- تريد جوازك إذن!

رفع الجواز أمام وجهه، وشرع يمزقه ثم ألقى فتاته على الأرض قائلًا:

- هذا جوازك، خذه وانصرف!

تجمّد مهيب لحظة، غير مستوعب ما رآه. لم يكن ثمة ما يستدعي كل هذا! نظر إلى بقايا جوازه على الأرض، ثم رفع رأسه صارخًا:

- أيها اللعين ماذا فعلت؟ سوف...

لم يُكمل الجملة؛ فقد باغتته صفعة قوية دوّت على وجهه.

كان يمكن أن تنتهي المسألة عند هذا الحد، لو أنه انحنى والتقط الجواز الممزق أو تركه على الأرض ومضى، لكن ليس الجواز هو من مُزق بل كرامته فأبى أن يغادر دونها.

انقض على الضابط وأسقطه أرضًا وانهال عليه لكمًا وركلًا، اندفع الجنود لتخليص قائدهم الذي كان يصرخ ويحاول الإفلات من قبضة مهيب. استطاع الجنود تخليصه لكن بعد أن أوسعوا مهيب ضربًا، انتقامًا لقائدهم الملقي على الأرض وقد تعفرت ملابسه وأدمي أنفه وفمه.

نهض الضابط بغير اتزان، يزبد ويرغي ويتوعد، ثم تناول بندقيته وأطلق منها طلقات متتالية، أنهت حياة مهيب على الفور، ومعها قتلت أحلامه وشوقه للقاء أسرته. سقط جسده صامتًا، وعيناه لا تزالان تحملان آخر صورة رآها في خياله: وجه أحبائه، الذين لن يراهم بعد اليوم.

وقف السائق وبقية الركاب مذهولين مفزوعين، لم يتوقعوا هذه النهاية، عجزوا حتى عن الكلام أو الصراخ تعبيرًا عن الفاجعة وخطر لهم أن ذلك المجنون سوف يقتلهم تباعًا. بصمت وخوفٍ بالغين حملوا الجثة ووضعوها في السيارة بعد أن نالهم الكثير من الشتائم من القائد الذي كان يصرخ عليهم آمرًا بمغادرة المكان قبل أن يقتلهم جميعًا.

تحركت السيارة في صمت كئيب. اتجهوا رأسًا نحو القرية غير قادرين على تفسير ما حدث أو التحدث إلى بعضهم بهذا الشأن من هول الصدمة.

وبحلول نهاية النهار كانت السيارة قد توقفت أمام منزل عائلة مهيب.

لم تمضِ لحظات حتى سُمعت أصوات عويل وبكاء تُصدِّع الجدران، وتهز أبدان السامعين. تجمع الناس حين أزيح الغطاء عن الجثة المحمولة على السيارة، تلك السيارة التي غادرت صباحًا وهي تحمل الفرح والاشتياق لهذه الأسرة، عادت مسكونة بالشؤم، حاملة جنازة وذكرى أبدية من الحزن.

كانت تلك جثة شقيقي الأكبر، مهيب. قتلوه بغير ذنب، وأطفأوا فرحتنا في مهدها. أعادوا لنا جثمانه محمولًا بجانب الهدايا والثياب التي لم تُرتدَ أبدًا. في تلك اللحظة، انقلبت حياة زوجته وطفليه إلى الأبد. من يومها لم أعد أحتمل النظر في عيونهم الذابلة، ولا إلى والديّ اللذين هشّم الحزن ما تبقى من قوتهما وأحنى ظهريهما.

في الظاهر، قد تبدو الأشياء بسيطة، لكن خلفها يكمن عمق لا يُرى. رصاصة واحدة، في لحظة غضب عابر لرجل مريض، قادرة على نسف أعمار كاملة من الفرح، ومحو تفاصيل وحكايات وحياة بكاملها.

كانت تلك الرصاصة كافية لتغيّر مصائرنا جميعًا. ولو لم تُطلق، لعاش كل فرد في أسرتنا حياة مختلفة تمامًا. لكننا أدركنا أن القاتل لم يكن إلا ترسًا في آلة نظام فاسد، وأن ساحة المقاومة هي الميدان الوحيد لتصفية حسابنا معه.

هناك عاهدت أسرتي على القتال ضد من سرقوا منا أخي وفرحتنا، وكان والدي أول من شجعني على الانضمام إلى صفوف المقاومة.

انتهى علي من سرد حكايته الموجعة، وساد الوجوم على وجوه الرفاق. وبعد لحظات من الصمت بادر مراد بالقول:

- أقدّر حجم الصدمة أخي علي، أنا متألم جدًا لأجلكم.

قال عبدالله:

- رجوت في قرارة نفسي ألا تكون النهاية مفجعة. ثق أننا معك حتى النهاية.

أضاف علوش معزيًا:

- نحن هنا عائلتك، وثأرنا واحد، ولن نخذلك إن شاء الله.

❊ ❊ ❊

الفصل السابع

كانت بحوزتنا قطعة أرض زراعية وحيدة، لا نملك سواها، لكنها واسعة، تكفي لأن نمضي ساعات النهار في كدّ متواصل لزراعتها ورعايتها. وكانت لدينا بقرة تهتم بها أمي إلى حدّ أننا كنّا نشعر أحيانًا بأنها تحبها أكثر منا. فإذا سألناها عن سرّ كل هذا الاهتمام، قالت مبتسمة:

"البقرة تستحق العناية لقاء ما تمنحنا من حليب ولبن وسمن. نبيع عجولها بمبالغ جيدة، وإن أنجبت أنثى فهي بدورها تمنحنا كل ذلك حين تكبر. ألا تشعرون بالتقدير لها وهي تفقد فلذات أكبادها بالذبح؟ ألا تدركون قيمة ما تقدمه لنا؟"

كانت حياتنا تمضي على هذا النحو من البساطة والسعادة، تسير بوتيرة شبه ثابتة، ولا تخلو من منغصات يومية ومتاعب معيشية، لكن المصيبة الحقيقية بدأت يوم سُرقت منا أرضنا.

في قريتنا شيخ ثري يهوى جمع الأراضي. يشتريها من الأهالي ويتحايل في دفع أثمانها، حتى صار يملك مساحات تفوق ما يملكه جميع سكان القرية مجتمعين. وكلما ازداد ثراءه، ازداد طمعه. إلى جانب الأرض، كان يمتلك مئات الأغنام ويعيش في ترف، بينما أهل قرية "الصيوان" لا يملكون سوى ما يسد رمقهم.

كان الرجل يتفنن في إشعال الفتن بين الناس وافتعال النزاعات، ثم ينصّب نفسه حكمًا بينهم مقابل أجر يفوق طاقة المتخاصمين. فإذا كان الخلاف على

أرض، يقنع الطرفين بأن يبيعاه إياها: "كي لا يشعر أحدهما بالغبن"، كما كان يدّعي. يعقد تسوية مالية بينهما ويدفع لهما الثمن الذي يقدّره هو، مناصفة، مستغلًا حاجتهما.

قبل عامين، أمسكت السماء مطرها، إلا من زخات خفيفة لا تُسمن ولا تغني. ضرب الجفاف القرية، فذبل الزرع وجفّت المراعي، واضطر المزارعون إلى حصد نباتاتهم اليابسة علفًا للمواشي بدلًا من حبوبهم المرجوة.

لم يختلف حالنا عن الآخرين. ومع قلة العلف، وجدنا أنفسنا مضطرين لبيع بقرة أمي العزيزة. كان لفقدانها أثر قاسٍ عليها، وعلى البيت كله. والأسوأ أن ثمنها لم يكفِ إلا لفترة قصيرة، فالناس في القحط يعزفون عن شراء الماشية، وكانت الأسعار زهيدة.

وحين نفد المال، اضطر والدي للاستدانة. لم يكن في القرية من هو أقدر على إقراضه من الشيخ الثري. ذهب إلى بيته الفخم يلتمس المال والحبوب، ووعده بالسداد بعد عام كامل، لكن الشيخ ردّ ببرود متعللًا بأن كثيرًا من الناس يقترضون منه بسبب سوء الموسم الذي ألقى بظلاله على الجميع، ولهذا السبب بات يخشى عدم وفائهم بالتزاماتهم، وما سينتج عنه من كارثة مالية له إن حدث ذلك.

اغتمّ والدي بشدة وقد سدّت المنافذ أمام وجهه، وفقد الأمل المعقود على الدَّين، وقبل أن يغادر يائسًا قال له الشيخ مستدركًا:

- يمكنني تلبية طلبك... بشرط.

انفرجت أسارير أبي موافقًا فقال الشيخ:

- كما فعل الآخرون... رهنوا عقود أراضيهم ضمانًا للسداد.
- كما تعلم يا شيخ، لدي قطعة أرض واحدة كبيرة، أكبر من غيرها. أنا مستعد لرهنها إلى وقت معلوم، لأني سأقوم بالسداد دون شك، ولا نية لدي للتخلف إطلاقًا.

أجاب الشيخ:

- على بركة الله. أحضر صك ملكية الأرض، وسنكتب المديونية وشروط الرهن ومدته، ولك ما طلبت.

عاد أبي إلى المنزل منتشيًا، تناول صك الأرض وعاد مسرعًا إلى الشيخ. وبعد أن كُتب العقد كما اتفقا، أخذ حاجته من المال والحبوب.

كغيرنا من الأهالي الذين عصفت بهم الظروف نفسها، علّقنا آمالنا على الموسم القادم لتعويض الخسارة وسداد الديون. وجاء الموسم التالي ماطرًا، والحمد لله، وكان الحصاد وفيرًا. لكننا فوجئنا بمعضلة جديدة: حصاد هذا العام يفترض أن يغطي نفقات العام نفسه وديون العام السابق معًا.

قلت لأبي متوجسًا:

- كأنك يا أبي لم تحسب الأمر كما ينبغي! ما لدينا من المحصول لن يكفي للنفقات المقبلة وسداد الدين في الوقت نفسه.

ابتسم أبي بأسى وقال:

- فكرت في ذلك يا بني، ما تقوله صحيح.

سألته أمي:

- وماذا أنت فاعل الآن؟

قال أبي:

- المهم أن ندفع ما علينا للشيخ ونستعيد صك الأرض، ثم نتدبر أمرنا بما بقي. سأقترض ما تيسر لتسيير شؤوننا، وسنقتصد قدر الإمكان.

وبسبب هذا الخلل في الحساب، تعذّر علينا أيضًا تنفيذ وعد أبي لأمي بشراء بقرة تعوّضها ما فقدته. قدرت أمي الظرف الراهن، لكننا وجدنا أنفسنا مضطرين للاستدانة مرة أخرى من شخص آخر لتسديد دين الشيخ واسترداد وثيقة الرهن.

اقترب موعد السداد، وقبل انقضاء المهلة بأيام كان أبي قد هيأ المبلغ كاملًا، ثم توجه إلى منزل الشيخ طالبًا مقابلته لدفع الدين واستعادة صك الأرض. لكنهم أخبروه أن الشيخ غير موجود. جاب أبي أرجاء القرية بحثًا عنه فلم يعثر عليه.

عاد في اليوم التالي، فوجده عند الباب يستعد للخروج، غير أن الشيخ اعتذر مدعيًا أن لديه أمرًا عاجلًا لا يحتمل التأجيل، ووعده بأن تُسوى المسألة في وقت لاحق لم يحدده.

ظن أبي أنه يقصد اليوم التالي، لكنه لم يكن يعلم أن الشيخ كان في طريقه إلى صنعاء، حيث غاب أسبوعين كاملين. طوال هذه الفترة، كان أبي يزور منزله يوميًا يسأل عنه، وفي كل مرة يتلقى الجواب نفسه: "لم يعد بعد."

حين عاد الشيخ أخيرًا، كان أبي في انتظاره، فدعاه الرجل إلى مجلسه وسأله بابتسامة:

- خير يا أبا ذياب؟ يبدو أن لديك أمرًا مهمًا تود إخباري به.

وضع أبي المبلغ أمامه وقال له:

- وهل هناك أمر أهم إليّ من دينك؟ هذا هو كاملًا كما اتفقنا. أردت أن أتأكد من وجودك قبل أن أحضر الحبوب، وسأعود بها حالًا على ظهر الحمار. شكرًا لك لأنك وقفت معي في ضائقتي، وها أنا أوفيت بوعدي، وأتيت لأرد مالك وأستعيد صك أرضي.

نظر الشيخ إلى المال الموضوع أمامه، ثم نظر إلى أبي وقال:

- آه... كنت قد نسيت هذا، لكن مع الأسف يا عثمان، لقد تأخرت في السداد.

ارتسمت الدهشة على وجه أبي فسأل:

- ماذا تعني يا شيخ؟ أيّ تأخير وأنا أرابط ببابك كل يوم!

- الاتفاق هو الاتفاق، وبيننا وعدٌ معلوم، ولكنك تخلفت عن الموعد بأيام.

قال أبي محتجًا:

- لم أتخلف أبدًا! جئتك مرارًا قبل انقضاء المدة، وأنت تعلم أنني قابلتك قبل سفرك.

ابتسم الشيخ ابتسامة ماكرة:

- لكنك لم تسدد ما عليك سوى الآن، والسداد في وقته هو أساس الاتفاق الذي بيننا لكي تستلم رهنك، أليس كذلك؟

تساءل أبي وقد بدأ يساوره القلق:

- ما الذي تريد قوله؟

رد الشيخ بمكر:

- احتفظ بمالك وحبوبك فقد أصبحت حلالًا عليك.

صلح أبي غاضبًا:

- المال لا يهمني يا شيخ، جئت لأسترد صك أرضي.
- تقصد الأرض التي كنت تملكها... الآن هي أرضي شرعًا وقانونًا، وبموجب اتفاق تراضينا عليه.

صمت أبي وقد أدرك الخديعة وحجم الكارثة. لقد تعمد الشيخ الغياب حتى تنقضي المهلة المقررة ويستولي على الأرض. عاد إلى المنزل مهمومًا حزينًا يلوم نفسه، لكنه في أعماقه لم يتقبل الهزيمة، وعزم على استرداد أرضه أو الانتقام مهما كلف الأمر.

سرعان ما انتشر خبر تعرض فلاحين آخرين للاحتيال نفسه على يد الشيخ. مضت أيام عصيبة على الأسرة، وعلى أبي خصوصًا، إذ لزم البيت طويلًا لا يغادره إلا نادرًا، ثم بدأ يخرج ليلًا ويعود مع الفجر دون أن يخبرنا إلى أين يذهب. أما باقي وقته، فكان يقضيه في غرفته، صامتًا، غارقًا في كآبته.

في إحدى الليالي، غادر أبي المنزل ولم يعد. كنا نتوقع عودته مع الفجر كما اعتاد. بحثنا عنه في كل مكان، حتى وصلنا الخبر قبل الظهيرة: وجدوه جثة هامدة في حالة يرثى لها، وإلى جواره زجاجة خمر فارغة وكومة من أعقاب السجائر. حملوه وعادوا به إلى البيت.

سُحقنا تمامًا. لم نفقده فقط، بل صرنا معدمين، ومات أبي قهرًا بسبب ذلك الشيخ اللعين الذي احتال عليه وعلى غيره من الفلاحين. بحثت عن وسيلة تعيد لنا حقنا وتشفي غليلنا بالانتقام من الشيخ، لكن كل فكرة كانت تصطدم بواقع موازين القوى التي تميل لصالحه، حتى قوة القانون كانت في صفه.

أدركت حينها أن القضية لم تعد أرضنا المسلوبة أو بقرة أمي أو حتى موت أبي، بل قضية القرية بأسرها، قضية كل الناس الذين يرزحون تحت نير الظلم وأقدام المتسلطين. لذلك اتخذت قراري بالانضمام إلى المقاومة للتخلص من هذا الشيخ وأمثاله، واستعادة الحق والانتصار للمظلومين.

حين انتهى ذياب من سرد حكايته، قال علوش بأسف:

– قصتك هذه ربما تلخص كل شيء، فالشيخ يمثل السلطة بكل

مفاسدها. أنت الآن واحد منا يا ذياب، وبما أننا ننصر أي مظلوم، فمن باب أولى أن ننصر أخانا.

التفت علوش نحو سعيد وقال:

- أظن أن دورك قد حان أيها الرجل الصامت. هذه فرصتك للبوح، دعنا نتعرف على صوتك على الأقل.

أجاب سعيد متحفظًا:

- أستميحكم عذرًا، لا رغبة لي بالحديث عن هذا... لدي دوافع لا أحب البوح بها، آسف.

سأله ذياب باستغراب:

- ما الأمر! ليس بين إخوة السلاح ما يُخفى. ومع ذلك، لست مضطرًا لقول ما لا تريد.

قال مراد محاولًا تشجيعه على الكلام:

- دوافع الثوار نبيلة يا سعيد، ولا تستدعي الخجل. مثل هذه الأمور تقال بفخر.

تدخل عبدالله بالقول:

- حسبكم يا رفاق، لا تضغطوا عليه أكثر، من الواضح أن لديه ما يمنعه.

ابتسم ذياب ساخرًا:

- يبدو أن لديك أنت أيضًا ما تخفيه، وتريد إغلاق الموضوع قبل أن يحين دورك.

رد عبدالله بحزم:

- ليس لدي ما أخفيه. أنا من اقترح سرد الحكايات أم نسيت؟ أردت فقط أن تتركوا سعيد وشأنه.

هنا استجمع سعيد شجاعته وقال بصوت متردد:

- لا بأس... سأخبركم بقصتي.

❊ ❊ ❊

الفصل الثامن

استجمع سعيد ثباته، وبشيءٍ من المرارة قال:

أنتم لا تعرفون من أنا، ولا تعرفون عني شيئًا سوى اسمي... في الحقيقة، لست إلا فتى من الطبقة الأدنى في هذا المجتمع. أنتم تفهمون قصدي، فأنتم تعيشون في المجتمع نفسه، وتعلمون ما أعنيه بالطبقة الأدنى، وكيف يُنظر إلينا ويعاملوننا بشكل مهين.

تعيّن علينا أن نخدم الناس في مناسباتهم: نذبح، ونطهِي الطعام في الولائم، ونقوم بكل ما يلزم لتسهيل حياتهم... وفي المقابل يحتقرنا الجميع، من غير ذنب ولا خطيئة اقترفناها. لا يحق لنا ما يحقّ لغيرنا؛ لا يُسمح لنا بالجلوس في مجالسهم إلا مقرفصين، أو واقفين عند الباب ننتظر الأوامر. يخاطبنا الجميع بازدراء، فنسمع وننفّذ فقط، ولا يحقّ لنا أن نناقشهم في شيء، إلا فيما يتعلّق بكيفية أداء المهام الموكلة إلينا.

إن حدث واختلفنا مع أحدهم، تنهال علينا الشتائم، حتى وإن لم نرتكب خطأً. مجردُ الاختلاف عندهم يعني أننا تطاولنا على "الأسياد" وتناسينا أصلنا الوضيع... هكذا يفكّرون.

لا يجرؤ أحدنا على التفكير في الزواج من بناتهم، ولو تجرأ أحدنا، فقد يدفع حياته ثمنًا. منذ أدركت هذه الحقيقة المُرة، وأنا أرفضها... لكن رفضي ظل حبيس صدري، فالمجاهرة به كفيلة بجرّ أسرتي إلى مأزق لن ننجو منه،

وكأنني ارتكبت جريمة مشهودة. كل جرمي أنني أريد أن أكون إنسانًا كاملًا، مثلهم، لا أكثر.

لكن كيف نتجاوز كل هذا، وقد نشأنا في بيئة تغرس فينا شعور الدونية، وبأننا أقل شأنًا من بقية البشر؟ وكيف إذا كان أول من رسَّخ فينا هذا الشعور هم أهلنا، الذين استسلموا للوضع واعتادوا عليه؟

أنا لا أرى نفسي أقل شأنًا من أحد، بل هناك من هم أدنى مني بمقياس الإنسانية. غير أن اعتزازي هذا كان دائمًا يصطدم بواقعنا ونظرة الآخرين إلينا. فكرت في التمرد على هذه التقاليد، إذ لا شيء يجعلها ملزمة لي سوى الضعف والمكانة التي وُلدنا عليها... لكن بينما كانت الفكرة تختمر في رأسي، حدث ما لم يكن في الحسبان.

فجأة وجدت نفسي غارقًا في الحب. رأيتها يومًا تسير برفقة أختها، وكأنني أراها لأول مرة. كنت قد لمحتها من قبل، فنحن نتشارك أحيانًا طريقًا ضيقًا في أحد الأزقة، والقرية صغيرة يعرف أهلها بعضهم فردًا فردًا. لكن في ذلك اليوم، وفي تلك اللحظة تحديدًا، تعلق قلبي بها بلا سبب مفهوم. لم يسبق أن تحركت مشاعري نحوها رغم جمالها، ولا أستطيع حتى الآن تفسير ما جرى.

عدت إلى البيت شارد الذهن. تمددت على الفراش أحدق في السقف، وقد استقر في قلبي يقين غريب بأن الله قذف حبها في صدري فجأة تمهيدًا لقدَرٍ ما.

بقي بصري ثابتًا على خشبات السقف، والابتسامة لا تفارق وجهي وأنا أستعيد تفاصيلها: غطاء رأس عنابي تنفلت منه خصلات من مقدمة شعرها، فستان مزركش يمتد أسفل الركبة بقليل، بنطال أسود تتناثر عليه نقوش بيضاء...

سبحت في عالم من الخيال والأحلام العذبة، لكن فجأة... أفقت مذعورًا. انتصبت جالسًا، ووجدت نفسي جاثيًا على ركبتي، كأنني تلقيت صفعة. تذكرت الفوارق الطبقية التي غابت عني لوهلة، فامتلأ صدري بالضيق، وحل حجر مكان قلبي. رعبٌ تسلل إليّ من استحالة الحلم، وفكرت في وأده في المهد.

شعرت بقهر شديد، وبرغبة جارفة في البكاء؛ ليس من العدل أن أُحرم منها لهذا السبب وحده. أردت أسبابًا أخرى للتخلي عن هذا الحب... لكن لم أجد. فبدأت ألعن العادات والتقاليد، وألعن جدّي، أيًّا كان ترتيبه، ذلك الجد الذي أورثنا هذه المنزلة التي سلبتني إنسانيتي. كنت على وشك الاختناق بدموعي، فأنا كاره أصلًا لوضعنا ولنظرة الناس إلينا، ثم جاءت هذه الفتاة لتكمل الناقص من شعوري بالمهانة، وتزيد الطين بلة.

رغم كل شيء، لم أستسلم. عزمت أن أخوض التجربة حتى آخر حدودها، كمن يمضي في طريقٍ يعلم أن نهايته جدارًا مسدودًا. وفي صباح يوم غائم رحت أنتظرها عند الطريق الترابية المؤدية إلى الحقول، مفترضًا مرورها من هناك.

جلست تحت شجرة أثل عتيقة، متظاهرًا بأنني أترقب شخصًا آخر، فيما عيناي تتفحصان وجوه العابرين. مرّ المزارعون، بعضهم يتجه نحو الحقول، وبعضهم يعود منها، بعضهم يجر خلفه حماره، وآخرون يسوقون قطعانهم. وأمام كل هؤلاء العابرين حرصت على البقاء متظاهرًا باللامبالاة، بينما عيناي تتفحصان العابرات أملًا في أن تكون إحداهن.

قبيل الظهيرة، بدأ المطر يرسل قطرات أولى خفيفة، وكأنه يمهّد لظهورها. وفجأة، ظهرت هي وأختها، تتبادلان الحديث والضحك وقد بلل المطر ثيابهما. تجمدت مكاني، أتابع خطواتها كالمسحور، حتى عبرتا بمحاذاتي تمامًا، وعلى وجهي ابتسامة بلهاء. رمقتني بنظرة خاطفة وابتسامة، أفقدتني ما تبقى من صواب. همست لأختها شيئًا فنظرتا إليّ نظرة جانبية مصحوبة بابتسامة أوهمتني بأنهما تتهامسان عني بكل خير أو بإعجاب.

عدت إلى البيت عابرًا شوارع القرية وأزقتها، الناس حولي يتحركون ويتكلمون، وربما ينظرون إليّ، لكنني كنت غائبًا عنهم جميعًا. لم يبقَ في ذاكرتي سوى ابتسامتها، بياض أسنانها، صفاء وجهها، وخصلات شعرها المبتلة التي التصقت بوجنتيها.

وصلت إلى المنزل، وبالكاد تذكرت أين أنا، وأن أفراد أسرتي بالداخل. سلمت عليهم واتجهت إلى غرفتي لأواصل خيالاتي.

منذ ذلك اليوم، واظبت على انتظارها في المكان نفسه، أبادلها الابتسامة، فترد

بابتسامة أرقّ، تسلبني ما بقي من حواسي. أقنعت نفسي بأن وراء تلك الابتسامات شعورًا متبادلًا، إن لم يكن حبًا، فهو على الأقل إعجاب. ومع الوقت، تحوّل شكي إلى يقين واهٍ، يقين سرعان ما تهزه الحقيقة القاسية التي تتسلل إليّ كل ليلة، فأتساءل: هل يمكن لفتاة مثلها أن تقع في حبي؟ أم أنها، مثل غيرها، ترى في الفوارق الطبقية جدارًا لا يُتجاوز؟

لم أجرؤ على التقدم خطوة نحوها، ولا على البوح بما في قلبي. كنت أخشى أن يكون جوابها الطعنة التي تقتل أملي إلى الأبد. تمسكت بذلك الوهم، بل أحببته، وعشت على دفء كذبة صنعتها لنفسي، مدركًا في أعماقي أنها لن تدوم.

لم أكن أدرك أن زمن الحلم قصير، وأن العذوبة قد تنقلب لهيبًا، وأن الشوق قد يصير نارًا تحرق ليلي ونهاري. تغيرت حياتي، وأدرك الجميع أنني لم أعد كما كنت: صمتٌ طويل، شرود دائم، وحياة أعيشها نصفَ حاضر ونصفَ غائب. كنت أسبح في عالمٍ آخر، عالم من جمال مصطنع وسعادة متخيلة، لا يعكره إلا لحظة استفاقة مفاجئة على واقع بائس، حين تنهار مباني الوهم حجرًا بعد آخر، فأجد نفسي جالسًا على حصير بالٍ وسط أسرة بلا أفق، وأيام بلا وجهة، ثم أعود لأعيد بالحلم أو بالوهم البناء من جديد... ويهدمه الواقع من جديد.

طال هذا الحال حتى جاء مساءٌ حسمت فيه أمري. كنت أذرع الغرفة جيئة وذهابًا، كأنني أبحث عن مخرج. وفجأة، تناولت القلم، وبدأت أكتب بخطٍ

متعثر، مليء بالأخطاء، إرث سنوات تعليم رديء تحت شجرة القرية، على يد إمام المسجد. ومع ذلك، كنت أعدّ نفسي محظوظًا، لأن تلك الحلقات البسيطة كانت الرابط الوحيد الذي جمعني بفتيان القرية، ونافذتي الضيقة على العلم... العلم الذي كنت أرجو أن يحررني من الانكسار الذي يطوق حياتنا من كل الجهات.

كتبتُ لها بعزيمة لا تعرف التردد، وصببتُ في الكلمات أعذب ما في قلبي من مشاعر. كانت يدي تتحرك دون وعي، والقلم يجرّ نفسه ويجرّني معه، كأنما هو من يكتب لا أنا. لم أكن أنوي أن أطيل، فقط بضعة أسطر تكفي لتبوح بما يختلج في صدر عاشق يقف تحت الشجرة كل صباح، وغايته أن يضع حدًا لحالة الهيام التي استبدّت به حتى طغت على حياته.

حين انتهيت، طويت الرسالة ببطء ودسستها في جيبي، كما يدسّ المرء سرًّا ثمينًا يخشى عليه من الانكشاف. حاولت أن أنام، لكن كيف يزور النوم عاشقًا يترقب لحظة الحسم؟ لقد جافاني النوم ليالٍ كثيرة، فكيف يعطف عليّ في هذه الليلة بالذات؟

أشرقت شمس الصباح أخيرًا وحان وقت الحسم. توجهت إلى المكان المعتاد، وجلست أترقب. لم يطل انتظاري، فما هي إلا دقائق حتى ظهرت من بعيد، تسير وحيدة، فازداد خفق قلبي حتى خشيت أن يسمعه المارة. شعرت بأن القدر قد هيأ لي الفرصة على أكمل وجه.

وما أن اقتربت ناديتها بصوت خافت يتخلله ارتجاف:

- شمس.

توقفت متفاجئة، والتفتت إليّ. تقدمت نحوها بخطوات مترددة، وناولتها الورقة بيد مرتعشة. حاولت أن أبدو متماسكًا، فقلت:

- أنتظر منك جوابًا، وليبق الأمر بيننا، أرجو ألا تبوحي بما فيها سوى لمن ستقرأها لك.

كنت أعني إحدى قريباتها؛ فهي لا تجيد القراءة والكتابة.

احمرّ وجهها، وارتفع حاجباها في دهشة وهي تقول:

- ماذا فيها؟ ولماذا لا تقرأها أنت؟

ابتسمت ابتسامة مرتبكة وقلت:

- لأنها طويلة، ولا وقت لقراءتها الآن، المهم... التزمي بما طلبت منك رجاءً، وغدًا سأكون بانتظارك هنا.

تناولت الورقة وهي تنظر إليّ بحيرة، ثم غادرت بخطوات متسارعة، وغادرت أنا بدوري، لكن قلبي بقي هناك معها.

مرّ ذلك اليوم ثقيلًا، وكأن الصباح لن يأتي أبدًا. كان النهار قد مرّ دون أن آكل شيئًا، لم يكن الأمر يتعلق بالشهية، إنما كنت قد نسيت... كان عقلي غارقًا في الرسالة المنتظرة، وما قد تحمله من كلمات. مشاعر متناقضة كانت تتناوب على قلبي: قلق، اطمئنان، فرح، حزن، خوف، تفاؤل، وتشاؤم. حتى شعرت

بأن رأسي يكاد ينفجر من فرط تفكيري فيها.

وبعد يوم وليلة داما دهرًا، طلع الصباح أخيرًا. هرعت إلى المكان مبكرًا، قبل موعد مرورها المعتاد بوقت طويل. كانت فترة الانتظار امتدادًا لقلق الليل الماضي، حتى لمحْتُها قادمة من بعيد. كان حضورها هذه المرة أبكر قليلًا من العادة، فقلت في نفسي: لعل الشوق الذي دفعني للمجيء باكرًا هو نفسه الذي ساقها إليّ الآن.

تابعتها بعيني منذ أن ظهر خيالها في الأفق، حتى اقتربت خطواتها مني. لمحت في يدها رسالة مطوية، فابتهجت. لم أكن أطمع أن تتوقف للحديث، ولا حتى توقعت ذلك؛ فمصارحتي لها بالأمس لا بد أنها ضاعفت خجلها. جلّ اهتمامي كان منصبًّا على ما تحمله يدها. لكن يبدو أنها كانت أكثر جرأة مما توقعته. اقتربت مني وناولتني الرسالة بكل ثقة وقالت:

- خذ رسالتك، احتفظ بها لنفسك، أو أعطها لفتاة تليق بك. ما الذي جرى للعالم حتى تظن بأن واحدة مثلي يمكن أن تهتم بواحد مثلك؟ إياك أن تنسى نفسك يا ابن خادم القرية.

ثم استدارت ومضت.

شعرتُ وكأن سكينًا شُهرت في حلقي، غصّة حارقة وألم لم أعرف له مثيلًا. وددت لو تنشقّ الأرض وتبتلعني.

منذ تلك اللحظة، لم تعد لي رغبة في هذه الحياة المهينة، لا بسبب صدمة

الحب الفاشل وحدها، بل لأن كلماتها عمّقت الجراح القديمة، وأيقظت فيّ إحساسًا دفينًا بالدونية.

كانت محقّة؛ فهي ابنة هذا المجتمع، وهذا هو العالم الذي نعيش فيه، ولا أظنه سيتغير. كم كنتُ فتىً أحمق!

حين أنهى سعيد حكايته، طأطأ البعض رؤوسهم خجلًا، وقد لمسوا بقلوبهم شيئًا من القسوة التي يعانيها هو وأمثاله. كانوا جميعًا أبناء مجتمع واحد، لكنهم لم يتعاطفوا يومًا مع هذه الفئة كما فعلوا الآن؛ ربما لأنهم لم يستمعوا لهم بقلوب مفتوحة من قبل، أو لأنهم لم يضعوا أنفسهم مكان سعيد إلا هذه اللحظة.

لم يستوعب ذياب بعد سبب التحاق سعيد بالجبهة، وكان يتوقع تتمة للحكاية. وحين أدرك أن القصة انتهت، قال:

- نحن حزينون جدًا لأجلك يا صديقي، ولكنك لم تخبرنا عن سبب انضمامك للثورة!

ابتسم سعيد وقال:

- كل هذا ولم تفهم بعد؟ من أهداف الثورة تحقيق المساواة وإزالة الفوارق الطبقية، وهذا ما نتوق إليه، فقد سئمنا حياة كهذه، وسأكون (سعيدًا) لو مت وأنا أحارب من أجل الفكرة.

ضحك ذياب وقال ممازحًا:

- أنت سعيد في كل الأحوال.

علَّق علي:

- ليس له من السعادة غير اسمه، لكننا ممتنون له لأنه باح بما في صدره ونبّهنا إلى مشكلة اجتماعية مستفحلة.

حينها، ابتسم سعيد لأول مرة منذ قدومه إلى المعسكر، وبعد لحظات صمت، بدأ عبد الله يسرد روايته.

❊ ❊ ❊

الفصل التاسع

كل شيء بدأ قبل أن أولد. قبل أن أفد إلى هذه الحياة؛ الحياة التي قدمت لي الشهد بطعم الصبار. قصتي لم تُكتب على الورق، بل حُفرت في قلبَي والديّ منذ سنوات العقم الطويلة. أنا ابن أسرة ميسورة نسبيًا، ورثنا أراضي واسعة وقطيعًا من الأغنام، ولأبي متجر صغير يبيع فيه المستلزمات المنزلية. كان الناس يظنون أننا سعداء، لكن في الحقيقة لا يكفي أن تملك ما لا يملكه الآخرون لتكون حياتك سعيدة. هناك نِعمٌ لا تُشترى، إن حرمت منها صار الغنى بلا طعم... وأعظمها نعمة الإنجاب.

مرت على أبي وأمي أعوام وهما ينتظران الطفل الذي لم يأتِ. كان الحلم يتسلل إلى مخيلتهما كل ليلة: طفل يحبو، يلهو، ويكبر أمامهما. لكن الانتظار طال حتى صار الألم جزءًا من يومهما. ثم جاءت المعجزة: حملٌ بعد يأس، خبر أربكهما بفرحه وقلقه معًا.

روت لي أمي فيما بعد أنها كانت تضع يدها على بطنها كل ليلة، تحدثني وأنا ما زلت جنينًا، وتستحلف القدر أن يتركني أصل إليها سالمًا. المحروم من الضوء يخشى على شمعته من أن تنطفئ وتتحول إلى رماد. هذا ما تعلماه من الحياة التي تهب للناس أحلامًا تنقلب إلى كوابيس، وسعادات مؤقتة تتحول إلى أحزان، ونِعمٍ تصبح نقمًا على حين غرة. أما أبي، فعبر عن فرحه بطريقته الصامتة، تلمع عيناه بدموع يخفيها، وكأنه يخشى هو الآخر أن تتبخر الفرحة إن تحدّث عنها كثيرًا.

وجئت إلى الدنيا بعد تسعة أشهر من الترقب والخوف. لم يكن يومًا عاديًا، بل مهرجانًا صغيرًا في القرية. ذبح أبي الذبائح، وامتلأ البيت بالزغاريد، وكان كل من يزورنا يخرج وهو يقول: "رزقهم الله بعد طول انتظار."

لكن سنوات الحرمان جعلتهما يعتنيان بي عناية فائقة وصلت حد الإفراط. كانا يخافان عليّ من كل شيء، يفزعان إذا مرضت، ويهرعان إذا بكيت ويلبيان كل طلباتي وأكثر، فإن تأخرا في تلبية طلب أبكي، وكنت أحيانًا أبكي دون سبب كعادة الأطفال المدللين.

لم يعجب هذا الدلال الزائد الأهل والأقارب فبذلوا ما بوسعهم من أجل تقديم النصيحة لهما محذرين من عواقب الدلال الزائد، وأنهما إذا أرادا لابنهما أن يكون رجلًا حقيقيًا يُعتمد عليه فالقليل من الشدة مفيد. غير أنهما لم يصغيا لأحد؛ فسنوات الحرمان كانت قد سلبتهما القدرة على التفكير السويّ لإدراك نتيجة هذا النوع من التربية. ثم إن أمرًا آخر قد استجد بعد ذلك كان يمكن أن يقلب الموازين ويعيد الأمور إلى مسارها الصحيح، فبعد ميلادي بما يقارب ثلاثة أعوام حملت أمي بطفل آخر كان مصدر سعادة للجميع، وخاصة بقية الأهل الذين استبشروا بهذا الحمل معتقدين أن الطفل القادم سيشكل فرصة لتوزيع الاهتمام المعتدل بيني وبينه. لكن لم تسر الأمور على النحو المأمول. بقيت أنا الابن المدلل، بينما كان أخي، في نظرهم، الأقوى والأقدر على الاعتماد على نفسه.

مع الوقت، صرت أرى في عيون الناس حكمًا مسبقًا عني: "لا يعتمد عليه"،

"ابن مدلل"، وكأن تربيتي كانت تهمة لا ذنب لي فيها.

لم يتشكل هذا التمييز إلا نتيجة الاعتماد على عبدالرحمن فعليًا بالقيام ببعض الأعمال التي حال والداي بيني وبينها بطريقة أو بأخرى، فبقيت في نظرهما مدللًا غير قادر على تحمل المسؤولية.

حين يُخصّ المرءُ بالاهتمام والراحة، يكون الأمر ممتعًا؛ فجلّ ما يتمناه المرؤ هو أن تلبى حاجاته دون أن يكلفه ذلك شيئًا. لكن الوضع لم يكن كذلك بالنسبة لي؛ لم يعجبني سير حياتي بهذه الكيفية. وعندما أدركت هذه الحقيقة كنت في غاية الاستياء، لكنني لم أفصح عن ذلك. أحزنتني سخرية الأطفال مني باستمرار وهم يشيرون إلى جهة لعب الفتيات عندما أرغب بمشاركتهم اللعب.

كانت تلك الظروف وتلك المعاملة كفيلة بأن تخلق مني شخصًا انطوائيًا يميل إلى العزلة، ويهرب من التجمعات والضجيج والاختلاط، ولد رقيق يتصرف كالفتيات، غير أن شيئًا من هذا لم يحدث برغم تأثيرها النفسي. لم أنزوِ أو أستسلم، ودرجت على إثبات العكس، بالقيام بالأعمال دون الاعتماد على أحد، وكنت أرهق نفسي لأغير الانطباع الذي التصق بي.

ومع ذلك، لم يثمر جهدي سوى مزيدٍ من تدخلِ والديَّ، وتجنيبي أيَّ عملٍ يرونه شاقًّا. وظلّت الفكرة السلبية عني حتى كبرنا وصِرنا شبابًا. عندها أدركت أن تغيير هذا الإرث الثقيل لن يكون إلّا بإنجازٍ استثنائي، عملٍ بطوليّ

يجعلهم يشيرون إليّ بالبَنان، ويُثبِت قدراتي وتفوّقي على أخي.

وجاءت الفرصة– أو هكذا خُيّل إليّ– حين دوّى في القرية نداء استغاثة أطلقه أحد الرعاة، معلنًا أن ثلاثة لصوص غرباء هاجموه بين التلال، وسرقوا قطيعه بعد أن انهالوا عليه ضربًا، ثم ساقوا الأغنام نحو جهة مجهولة. كان هذا النوع من الحوادث يحدث أحيانًا للرعاة في البراري.

تجمّع أهل القرية على عجل، يحملون البنادق والعصي، وأنا وأخي عبد الرحمن بين صفوفهم. انتشرنا في الشعاب القريبة، نتتبع آثار اللصوص، وبمشورة أحد الشيوخ انقسمنا إلى مجموعات، كل منها يسلك اتجاهًا مختلفًا لتغطية أكبر مساحة ممكنة.

سرت أنا وأخي باتجاه واحد، قطعنا مسافة مبتعدين عن نقطة الافتراق، ثم رأينا أن نفترق نحن أيضًا باتجاهين مختلفين. تركته وسرت مسافة مبتعدًا عنه، وقفت على قمة مطلة على وادٍ وأخذت أجول ببصري في جنباته... وإذا بي ألمح قطيع أغنام أسفل الوادي، وخلفه ثلاثة رجال مسلحين يحثون الغنم للسير بسرعة بغية الابتعاد أكثر قبل أن يصل إليهم أحد.

ناديت عليهم صائحًا بالتوقف وإعادة القطيع، ومحذرًا من عدم الانصياع، لكنهم لم يكترثوا، بل أسرع كل واحد منهم للاحتماء خلف صخرة، مصوّبًا فوهة بندقيته نحوي. وبقفزة إلى الأمام ألقيت بنفسي أرضًا، وبادرت بإطلاق النار، فجاء الرد فوريًا. تبادلنا طلقات عديدة، لكن موقعي المرتفع منحني

أفضلية؛ كانوا في مرمى نيراني، فيما وفّرت لهم الصخور حماية ناقصة، إذ جعلتهم محاصرين خلفها بلا مجال للتقدّم، بينما ظللت أنا متوارٍ عن أنظارهم، عصيًّا على التصويب من الأسفل.

أطلقوا النار بعشوائية، مدركين أن أي محاولة منهم لرفع رؤوسهم ستجعل إصابتهم أمرًا يسيرًا. حذرتهم من أن بقية رفاقي في طريقهم إليّ ومن الخير لهم ترك القطيع والنجاة بأنفسهم قبل قدومهم. وجدوا أنفسهم في مأزق، أحسوا بالخطر، وأدركوا أن المواجهة ليست في صالحهم، فهربوا للنجاة بحياتهم تاركين القطيع خلفهم.

لم تكن نيتي قتلهم، فكل ما أردته هو استعادة القطيع. وحين غابوا عن بصري، نزلت إلى أسفل الوادي لأقود الغنم نحو القرية، مبتهجًا وقلبي يخفق بنشوة النصر وأحدث نفسي بأن الله قد هيأ لي الفرصة لأبرهن للجميع بأنني رجل يمكن الاعتماد عليه. تخيلت وجوه الأهالي وهي تفيض فخرًا، وعبارات المديح والثناء تنهال عليّ، فشكرت الله، وشكرت حتى أولئك اللصوص الذين منحوني هذه الفرصة.

لم يقطع خيالاتي إلا صوت عبد الرحمن يناديني من أعلى الوادي. لا شك أنه سمع دوي الرصاص فاتجه نحوي. انضم إليّ، واستمع لما جرى، فأبدى سعادته واعتزازه بي، وراح يردد عبارات المديح ونحن نسوق القطيع نحو القرية.

في الطريق التقينا بمجموعة من الذين خرجوا للبحث معنا، بعد أن عادوا إلى

نقطة الافتراق السابقة. تفاجأوا برؤية القطيع يسير أمامنا، فرحوا وهللوا واحتفلوا. ترقبت أن يسألوا عن تفاصيل المواجهة المثيرة مع اللصوص، لكن بدلًا من ذلك فاجأني أحدهم وهو يقول بصوت حماسي: "أحسنت يا عبد الرحمن.. أحسنت أيها البطل." وانطلقت حناجرهم تردد اسم أخي، وأنا واقف في ذهول، أتابع المشهد كمن يرى حلمه يُسرق أمام عينيه. للحظة، خُيّل إليّ أن القرية بأكملها تتآمر عليّ، وكأنهم لا يريدون لي أن أكون ذا شأن. لقد افترضوا، وبلا شك، أن بطولة كهذه لا يمكن أن يقوم بها سوى عبد الرحمن.

اشتعل الغضب في صدري ورحت ألوم والديّ لتربيتهم التي أفسدت حياتي ورسخت لدى الناس الاعتقاد بأني لست كفؤًا لشيء. لكن ما آلمني أكثر من ظنونهم هو صمت شقيقي. نظرت إليه متوسلًا توضيح الحقيقة، لكنه خيب أملي ولم أجد منه غير الصمت والابتهاج باللبس الذي وجد فيه فرصة لتضخيم نفسه أكثر ولو على حسابي.

شعرت بالقهر من أخي ومن الآخرين، فآثرت الصمت ولم أحاول توضيح الحقيقة لأحد؛ خشية أن أصطدم بأخي، ولأنني كنت واثقًا أنهم لن يصدقوني، بل قد يزداد الأمر سوءًا ويسخرون مني باعتباري كاذبًا ومدّعيًا للبطولة. قنعت بنصيب صغير من البطولة، هو التضحية بالنفس وإيثار أخي على ذاتي، وعدت إلى المنزل حزينًا محبطًا، كارهًا اليوم الذي خرجت فيه معهم، والناس والظروف التي صغّرتني في أعينهم.

فكرت أن أفضل ما أفعله هو أن أختار طريقًا آخر، بعيدًا عن تقييماتهم الظالمة. اقتنعت أخيرًا بأن المكان المناسب هو ذاك الذي راود فكري من قبل لأسباب تتعلق بالواجب قبل أن تكون لإثبات الذات. غير أنني، قبل حادثة سرقة الأغنام، كنت قد استبعدت الفكرة من أجل والديّ، فانضمامي للجبهة سيحزنهما بالتأكيد. لكن بعد ضياع فرصة إثبات الذات الأولى، قررت أن تكون الجبال هي الميدان الذي أُري الناس فيه من أكون. هناك، ستتاح لي فرصة الحياة كمناضل أو الموت كشّهيد، ولن يتمكّن أحد من سرقة بطولاتي.

هنا صمت عبد الله قليلًا، ثم نظر إلى زملائه وقال:

- أعلم أن قصتي لا تضاهي ما سمعناه من قصص الرفاق. بإمكاني اختلاق حكاية مأساوية، لكن هذا ما حدث فعلًا. كنت، وما زلت، أعاني، وفي هذا الشعور ما يكفي من المأساوية إذا وضعتم أنفسكم مكاني.

قال علوش:

- لا حاجة للتبرير، أنت رجل حقيقي، وفي صبرك وإيثارك بطولة. معاناتك ليست بسيطة، فالألم النفسي أشد قسوة، خاصة حين يتحمله المرء وحيدًا بلا سند. نحن نقدر صبرك وعزيمتك، وسيدرك الجميع أي نوع من الرجال أنت.

الفصل العاشر

أشعل مراد سيجارة، ثم لوّح بعود الثقاب في الهواء حتى انطفأ قبل أن يرميه جانبًا، وهو جالس على صناديق الذخيرة. قال بنبرة واثقة:

- لم تدفعني للمقاومة المسائل الشخصية، قضيتي أكبر من ذلك... إنها قضية وطن وشعب...

توقف لحظة، وقد انتبه إلى أنه صاغ كلامه بطريقة متعالية. أدار بصره نحو رفاقه، ثم لوّح بيده اليسرى والسيجارة بين أصابعه وهو يعتذر:

- عفوًا... لم أُحسن التعبير. لا أقصد الاستعلاء أو التقليل من قيمة أهدافكم، فأنا أراها بصدق غايات نبيلة، ثم إنها ليست مجرد حالات فردية، بل نماذج لمظالم جماعية.

تداخلت أصوات الرفاق معبرة عن تفهمهم، وحثوه على مواصلة الحديث. سحب نفسًا عميقًا من سيجارته، ثم بدأ يحكي:

غادر أبي القرية شابًا أعزب، للبحث عن عمل في مدينة عدن، برفقة مجموعة صغيرة من شباب المنطقة للغرض نفسه. كانت عدن حينها مدينة نابضة بالحياة، لا تخيب أمل من يصل إليها. شدّوا الرحال محملين بأمتعتهم القليلة وأحلامهم البسيطة، وكأنهم من زمن آخر؛ يقطعون المسافات الطويلة سيرًا على الأقدام، لا يعرفون أن المسافرين في بلدان أخرى يقطعون مثل هذه المسافة في ساعات قليلة على عربات مريحة، بينما نحن نحتاج أيامًا للانتقال من مدينة إلى أخرى.

بعد أيام شاقة، وصلوا إلى مدينة الضالع، ومنها استقلوا شاحنة بضائع متجهة إلى عدن بعد أن اتفقوا مع السائق على الأجرة. سارت الشاحنة في طرق ترابية وعرة حتى بلغت الحبيلين، وهناك وقعت أعينهم لأول مرة على الإسفلت، ذلك الشريط الأسود اللامع الذي بدا لهم أشبه بمعجزة. كانت تلك أولى المفاجآت، وتلتها أخرى كثيرة. الطريق الممهدة جعلت السفر متعة، رغم أنهم ما زالوا فوق شاحنة بضائع.

كانت عدن آنذاك تحت الاحتلال البريطاني، فيما ترزح صنعاء تحت حكم ملكي ثقيل الوطأة. وما إن وصلوا إلى المدينة المنشودة واستقروا فيها، حتى بدأوا البحث عن عمل. لم يكن أبي متعلمًا ولا يجيد أي حرفة، لكن حظه أسعفه بعمل كحمال في الميناء، بأجر يومي متغير حسب حركة السفن. كلما زادت الحمولة، زاد الأجر، وكلما قلّت، تراجع دخله. ومع أن ما يتقاضاه لم يكن كثيرًا، فإنه بدا له ثروة مقارنة بما كان يجنيه في القرية، حيث كان يكدّ في الحقول طوال النهار وبالكاد يؤمّن قوت أسرته. في عدن، بات بإمكانه شراء ما يحتاجه وبعض الكماليات البسيطة، بل وحتى ادخار مبلغ صغير كل يوم.

هناك، وجد نفسه أمام حياة جديدة وغريبة لم يعرفها من قبل، حياة أسهل وأغنى بالتجارب، فيها وسائل راحة لم يتخيلها، وأطعمة متنوعة على موائد نظيفة. بقي على هذا الحال عامًا كاملًا، حتى بدأ يشعر برتابة الأيام، وتنامى شوقه إلى القرية والأهل. فقرر أن يعود بما ادخره، ليقضي شهرًا بينهم، ثم يرجع إلى عمله.

حين وصل إلى القرية، استعاد دفء العائلة الذي افتقده طويلًا. وبعد أيام قليلة، فاتحه جدي في أمر لم يكن يفكر فيه، لكنه وجده مقبولًا بل ومغريًا: الزواج من فتاة يعرفها جدي جيدًا. وافق أبي، وتم الزفاف.

السعادة التي وجدها أبي في زواجه جعلته يمدد إقامته في القرية إلى ثلاثة أشهر مرّت كلمح البصر. وحين حان وقت الرحيل، عاد إلى عدن بشعور مختلف؛ شعور رجل ينتظر مولوده الأول، رجل مقبلٍ على منعطف جديد في حياته.

لكن ما إن استقر به الحال هناك، حتى اجتاحته رغبة ملحّة في العودة إلى القرية. وهكذا مضت السنوات على وتيرة واحدة: غياب طويل وعودة قصيرة، حتى انقضت ستة أعوام انتهت بفاجعة وفاة أمي إثر مرض ألمّ بها، دون أن تنال أي رعاية طبية. لم يكن في القرية مستشفى ولا طبيب، بل فقط معالجون شعبيون ومشعوذون يزعمون علاج السحر والمس، وغالبًا ما تنتهي تدخلاتهم الكارثية في صمت، يختبئ خلف جهل الناس.

رحيل أمي حطّم قلب أبي وزاد من قلقه عليّ، فقد كنت في الخامسة، بلا أمّ وبعيدًا عن أبي في آن واحد. قرر أن يقلّص فترات غيابه عن القرية، فصار يتردد كل فترة ليراني، رغم أني كنت أعيش في كنف جدي وجدتي وعمّي في بيت العائلة، وأجد منهم الحنان والرعاية. لكن غياب الأمّ لا يملأه أحد، وقد ترك فقد أمي فراغًا في نفسي، وكان أبي يدرك ذلك جيدًا.

مرّت السنوات، وخلالها كان أبي قد تزوج من امرأة في عدن، وأنجبت له بنتًا

وولدًا. وحين صرت قادرًا على السفر، اصطحبني معه لأعيش مع أسرته الجديدة هناك. كانت عدن آنذاك قد استقلت، ولم يعد للبريطانيين وجود فيها. وما إن وصلنا حتى سجلني أبي في مدرسة "البدو الرحل" التي أنشأها الرئيس سالمين لأبناء الفقراء والقادمين من الأرياف.

كنت محظوظًا في تلك المرحلة مقارنة بأبناء الشمال، الذين كان معظمهم محرومًا من التعليم، وأوفرهم حظًا من تلقّى شيئًا من القراءة والكتابة وحفظ القرآن تحت شجرة، على يد فقيه تعلم هو الآخر بالطريقة ذاتها، بينما كانت بقية العلوم غائبة عنهم تمامًا.

كانت عدن عالمًا آخر في نظر القادمين إليها من الأرياف. انبهرت بها كما انبهر أبي في رحلته الأولى؛ لم أتخيل أن هناك بشرًا يقصدون كل صباح أماكن غير الحقول والمراعي. في عدن، كان الناس يتجهون إلى المدارس والمستشفيات والمؤسسات وأقسام الشرطة. كانت هناك وسائل نقل، وسيارات وسفن وطائرات، وشوارع مرصوفة، وكهرباء، وهواتف، وتلفزيونات، وبرق، وطابعات، وصحف ومجلات وكتب، وحمّامات بمياه جارية داخل المنازل. بدا لي كل ذلك عالمًا من السحر والخيال، وأثارت تلك المشاهد في نفسي أسئلة لم أجد لها جوابًا: من أين جاء كل هذا؟ وأين نحن منه؟ ولماذا لم يصل إلينا؟

مع مرور الوقت، بدأ شعوري بالسعادة يخالطه الحزن، إذ أدركت أنني دخلت المدرسة متأخرًا؛ فالأطفال يبدؤون التعليم في سن السادسة، بينما جلست أنا

على مقعد الدراسة في الخامسة عشرة. وكان هذا الشعور يزداد مرارة كلما تذكرت أبناء وطني في أرياف الشمال، حيث لا يعرفون المدرسة أصلًا، ويحيون حياة بدائية قاسية، محرومين من أبسط وسائل الراحة.

تنامى الحزن إلى غضب، ومع كل يوم يمر كنت أكتشف حجم التخلف وبدائية الحياة التي نشأت فيها في القرية، تلك التي ما زال يعانيها أهل القرى وحتى المدن، غير مدركين أن لهم حقوقًا غائبة، لم ينالوا منها شيئًا.

في المدرسة درست مواد عدة، وأحببت قراءة الكتب، بخاصة تلك التي تحكي عن تاريخ الحضارات القديمة. وكانت الصدمة حين قارنت حياة تلك الشعوب التي عاشت قبل آلاف السنين بحياة أهلنا اليوم، فاكتشفت أن أوضاعهم كانت أفضل من أوضاعنا قبل ثورة ١٩٦٢.

تغير الكثير في عقلي منذ قدومي إلى عدن؛ لم أعد ذلك الفتى القروي الذي لا يشعر بحركة الزمن، حتى تتشابه الأيام في عينيه. لم أعد أرتدي الملابس نفسها المتسخة لأيام، ولا أكتفي بسكب الماء من إناءٍ صغير لأبلل وجهي وشعري قبل الانطلاق إلى الحقل. في عدن، كل يوم جديد ومختلف عن سابقه؛ أفكار ومدارك وإنجازات تتراكم لتصنع غدًا آخر. حتى مفهوم المسؤولية تغير عندي، فلم يعد مقتصرًا على الفرد والعائلة ولقمة العيش، بل اتسع ليشمل المجتمع كله.

في المدرسة التحقت بالقوات الشعبية، وتدربت على القتال. ومع القراءة

والاطلاع، أدركت أن التغيير يحتاج إلى ثورة مسلحة، يوازيها تغيير فكري عميق، ليتمكن الشعب المطحون من الانتصار على المتسلطين الذين يقتاتون على الجهل، ويزيدون الفقراء فقرًا بالجبايات والحملات الهمجية التي تسلب ما تبقى لديهم من قوت. أدركت أننا لا نستطيع انتظار رحمة هؤلاء المستبدين، فقد وجدوا في صمتنا وجهلنا حصنًا يحميهم.

أخبرني أحد أبناء المنطقة الوسطى أن قريته أُحرقت بالكامل بعد أن داهمتها إحدى الحملات. هرب معظم أهلها، أما هو، فقد احتمى مع أسرته في غرفة على سطح بيتهم، يراقب ما يجري. رأى الجنود ينهبون كل ما تصل إليه أيديهم، حتى الملابس المعلقة التي تركها أصحابها لتجف على فروع الأشجار وأكوام الحطب. ذبحوا الأغنام والعجول، وأشعلوا النار فيما عجزوا عن حمله. طبخوا لحوم المواشي في قدور، وألقوا بالدجاج حيًّا في النيران المشتعلة، فكانت تصيح وتتقافز بريش يحترق. راقبوا الدجاجات وهي تموت ببطء ثم قاموا بسحبها بعد نضجها بالعصي من بين ألسنة اللهب. همجية ربما لا تضاهيها حتى غزوات الفايكنغ في أوروبا قديمًا.

في أوائل السبعينيات، سمعت عن تشكيل جبهات من أبناء تلك المناطق لمواجهة الحملات التي يشنها الجيش والقبائل بحجة مطاردة "المخربين". لكن نشاطها خمد بعد وصول الرئيس الحمدي إلى الحكم، إذ أوقف الحملات ورفع الظلم عن الناس، قبل أن يُغتال، لتعود الأمور إلى ما كانت عليه وتشتعل الثورة من جديد.

كل ذلك وضعني على الطريق، حتى شعرت أن الثورة جاءت إليّ قبل أن أذهب إليها.

قال علي:

- نحتاج إلى أن تحدثنا أكثر عن عدن، عن طبيعة الحياة هناك، وعما قرأته عن الشعوب الأخرى ومستوى الرفاهية الذي ذكرته.

قال مراد:

- على الرحب والسعة، لدينا ما يكفي من الوقت.

قال علوش:

- ونحتاج أيضًا إلى أن ننمي معارفنا بالمبادئ الثورية، وأن نفهم الفرق بين أيديولوجيات التيارات الفكرية والسياسية في اليمن والعالم، حتى نعرف أين نقف، ومن نصادق ومن نعادي.

ذياب، متعجبًا:

- ها قد عدنا من جديد إلى الكلام الذي لا نفهمه... أيديولوجيات وتيارات وتناقضات!"

ضحك الجميع، وقال علوش: "سنفهم كل ذلك في أوانه.

❊ ❊ ❊

الفصل الحادي عشر

حاول علوش التملص من سرد حكايته. وبعد إلحاح من رفاقه قال:

دفعني الحماس، والرغبة في التأثير والمساهمة في صنع الحدث. وكانت لهذا الحماس دوافع شخصية وأخرى عامة. أبي هو شيخ القرية، وقد ورث المشيخة عن جدي، الذي ورثها بدوره عن أبيه. هكذا تنتقل المشيخة على نحو منظم إلى الابن الأكبر في العائلة. وهذا المنصب، بطبيعته، مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالنظام الحاكم، ويقوم على إظهار الولاء والطاعة له. فالحكومة تنظر إلى شيوخ القبائل باعتبارهم وكلاء عنها في القرى والعُزل، لضمان الجبايات وإخضاع المواطنين لسياساتها.

لم تكن تروق لأبي بعض ممارسات الحكومة، مثل أخذ الرهائن إلى قلاع الحكام لضمان الولاء، كما كان الحال في عهد الإمامة، أو الجبايات السنوية التي يوردها الشيخ إلى الإمام سابقًا، ثم إلى حكومة الجمهورية بعد الثورة. كانت تلك الجبايات تُحصَّل بواسطة الشيخ، الذي يسلمها بدوره إلى السلطة الحاكمة.

كان أبي يتمنى أن تنتهي هذه الممارسات، لأنها تثقل كاهل المواطنين وتذهب إلى خزائن الحاكم، من دون أن تقدم الدولة لهم شيئًا في المقابل، سوى حماية مزعومة. حماية يتحدثون عنها بينما المواطن يعيش في فوضى وخوف، تحت رحمة الحملات الهمجية والنهب والسلب.

ومع ذلك، لم تدفعه قناعته إلى التخلي عن المشيخة، لأنه كان يرى أن هذا المنصب حق متوارث، ولو أنه عارض سياسة السلطة لاستبدلوه بآخر قد يبالغ في إرضاء الحكومة على حساب الناس. فكان الأفضل، كما قال، أن يمارس سلطته بنفسه بدلًا من أن يتولاها من هو أسوأ.

تكوّنت لدي القناعات نفسها، فشاطرت أبي حلمه بالعدالة والتغيير. وحين بدأت أخبار المقاومة تتردد في المنطقة، ورأيت بعض المواطنين ينضمون إليها تحت شعارات سامية نطمح لتحقيقها، كان لا بد أن أكون واحدًا منهم. كنت أعلم أن الآمال لا تتحقق بالدعاء والأمنيات ونحن جالسون في بيوتنا. وهذا، باختصار، ما جمعني بكم هنا.

نظر الشباب إلى بعضهم باستغراب من الإيجاز الذي لخص بها علوش قصته، وكأنه يريد أن ينتهي منها بأي شكل.

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني عشر

في مثل هذا الوقت من كل ليلة، تعيش فاطمة لحظات مرعبة. تساءلت تلك الليلة: ماذا لو أنها، في قمة صفاء ذهنها وتحررها من الخوف، اكتشفت أن خوفها كان مبالغًا فيه؟ ماذا لو أنها فكرت بهدوء، مجردٍ من الفزع، ولم تتوقع أمورًا مستبعدة الحدوث؟ هل كانت الأمور لتتطور أبعد مما كانت تسمعه؟ هكذا أخذها قلب الأنثى، معدومة الحيلة، إلى أقاصي التوجس.

ظنت أنها ستنعم بالطمأنينة حين انتقلت لتنام مع طفليها في الدور العلوي، لكن صوتًا قادمًا من النافذة بدّد ما تبقى من أمنها، وأعاد إلى ذهنها الأوقات الصعبة التي حسبت أنها ستتخلص منها بصعودها إلى الدور العلوي.

هرولت نحو السراج وأطفأته، ثم جلست على صندوق حديدي، صامتة، مرتجفة، تحدق في النافذة وسط الظلام الذي غشى الغرفة، متوجسة من أن تُقرع ثانية، وترجو الله أن يكون ما سمعت صوتًا عابرًا، أو وهمًا بريئًا، لا علاقة له بما كان يحدث في الدور الأرضي. لكن الأمل تبخر حين تكرر قرع النافذة من جديد.

أيقنت أن ثمة من يقذف نافذتها بحصى. غاب عن بالها أن ضوء السراج النافذ من القمرية الزجاجية سيجلب لها ما كانت تخشاه. ويبدو أن صاحب ذلك الصوت أدرك أن فاطمة انتقلت إلى الدور العلوي، حين لم يرَ ضوءًا في الدور الأرضي.

شعرت برغبة في البكاء وهي تؤنب نفسها لأنها لم تترك ضوء سراج الغرفة السفلية مشتعلًا على الأقل، أو خفضت نور السراج في الغرفة العلوية وغطت القمريات؛ حتى لا ينفذ الضوء عبرها. ولكن إهمالها كلّفها أن تعيش ليلة أخرى وربما ليالٍ قادمة مشابهة.

اندفعت نحو السلم هابطة بخطوات سريعة، وكادت تسقط على درجاته الحجرية المظلمة لولا أنها أسندت يديها إلى الجدار. توقفت في منتصف الطريق، وأقنعت نفسها أن لا جدوى الآن من إشعال السراج، فقد فات الأوان.

في عصر اليوم التالي، لم يكف كلب الدار عن النباح، راح يجري جيئة وذهابًا في المسار نفسه. ألقت فاطمة العلف للأغنام في الزريبة الواقعة خلف المنزل، والمطلة على الوادي. وفي طريق عودتها، لمحت رجلًا يصعد القمة القريبة. شهقت، وتراجعت خطوة. كان غريب الملامح عن القرية. أدرك الرجل فزعها، فاقترب مطمئنًا:

- لا تخافي يا أخت، لا نية لنا لإيذاء أحد.

قالت والقلق مازال مسيطرًا عليها:

- ليس لديكم! من أنتم؟

أجابها بتهذيب:

- يرافقني اثنان من رفاقي، لم يظهرا خشية إزعاجك. نحن من

المقاومة وفي طريقنا إلى الموقع، نحتاج بعض الطعام إن أمكن."

على عكس المتوقع، أشرق وجهها بالسرور، وقالت: "أنتم من المقاومة! أتعرفون علي عابد الحاج؟"

- أهو من رجال المقاومة؟
- أجل.

ردد الاسم وهو يحاول التذكر:

- علي عابد... نعم، ذلك الشاب ذو الشعر البني الملفوف؟ التقيت به مرات قليلة هو ورفاقه، لكنهم ليسوا في معسكرنا. موقعهم قريب منا. كان حينها مصابًا.

قالت بفزع: مصاب!

- ليست إصابة حرب، تعثر وأصيب في ساقه، وهو الآن بخير. لكن لماذا تسألين عنه.. أهو قريبك؟

لم تجبه، بل قالت بعجلة:

- انتظر هنا، سأجلب لكم الزاد.

أسرعت إلى المنزل، وعادت تحمل طعامًا لفته في قماش نظيف، وربطته بإحكام. في تلك الأثناء كان رفيقا الرجل قد انضما إليه. ناولتهم الطعام ثم قالت:

- هل أطلب منكم معروفًا؟
- بالطبع.
- إن صادفتم علي، أخبروه أن فاطمة تريده لأمر عاجل."

قال الرجل:

- سنتجه إلى حيث هو قبل أن نبلغ موقعنا. سنبلغه رسالتك. أتريدين شيئًا آخر؟
- لا. شكرًا لكم. فقط... لا تنسوا إبلاغه بما قلته لكم."

شكرها الرجال، ومضوا في طريقهم.

❊ ❊ ❊

الفصل الثالث عشر

- إلى أين؟

سمع عليّ السؤال، لكنه تجاهله. كرر مراد السؤال فالتفت عليّ خلفه ليجد مراد والمجموعة متأهبين بأسلحتهم. لم يقل شيئًا، واصل السير، فتبعوه. تجاهلهم مجددًا ومضى وهم خلفه، وكلما توقف توقفوا. عندها التفت إليهم وقال منزعجًا:

- لماذا تتبعوني؟ وإلى أين؟

قال ذياب:

- إلى حيث تذهب.
- ذاهب لأمر يخصني.
- ونحن أيضًا في طريقنا لأمر يخصك.
- أنا ذاهب لحلّ مشكلة لا تخصكم.

قال مراد:

- نحن شركاء في كل شيء هنا، وما يخصك يخصنا.
- لا شأن لكم بي، أستطيع التكفل بالمسألة وحدي.

سار بخطوات أوسع وساروا وراءه بالسرعة نفسها، عندئذٍ أدرك أنه لا مناص من عنادهم ومرافقتهم له. التفت وزفر بقوة وقال:

- مجموعة حمقى... هيا بنا.

لم يكن علوش معهم. كانت عملية غير مرتبة، قرر عليّ أن يخوضها وحده بعد لقائه بأرملة أخيه.

قبل منتصف الليل بقليل، وفي ليلة مقمرة يسودها الهدوء إلا من نباح كلاب متقطع وصفير الجداجد، وقف شخص بمحاذاة جدار منزل فاطمة من الجهة الشرقية التي تطل على الوادي القريب. كانت الجهة التي اختارها معتمة قليلًا بسبب ظل البناء الذي يحجب ضوء القمر. تلفت الرجل حوله للتأكد من خلو المكان. التقط بعض الحصى وشرع يقذف النافذة الخشبية في الدور العلوي وينادي بصوت خافت.

نفد ما في يده من حصى، فانحنى مجددًا ليلتقط المزيد، لكنه حين رفع رأسه تجمّد في مكانه؛ خمسة أشباح ملثّمين يقفون أمامه، كأنهم خرجوا من العدم. شهق وقد اخترق صدره ذعرٌ مباغت، وأخذ يتفحّص وجوه الرجال المسلّحين دون أن يتعرف على أحدهم. وعندما أزاح أحدهم لثامه، ازداد رعبه وارتعدت مفاصله، وأيقن أن نهايته وشيكة.

أمسك علي بتلابيب قميصه ووجّه له صفعة قوية ترنح على أثرها ولم يمنع سقوطه سوى قبضة علي المحكمة. سحب مسدسه بغضب ووضعه على رأس المتسكع بغية إطلاق رصاصة على جمجمته. تدخل سعيد وأبعد المسدس. حذره من أن صوت الرصاص سيقلق سكينة أسرته في الداخل،

وليس من الحكمة التصرف بدافع الغضب بجانب منزلهم.

أمسك علي بياقة قميص الرجل الذي بدا مستسلمًا ولم يجرؤ حتى على الصراخ وهو يجره خلفه. توقف علي وقام بدفعه أمامه، أمره بالسير واضعًا البندقية على رأسه. أطاعه الرجل خاضعًا ومتوسلاً أن يتركه، واعدًا إياه ألا يكرر فعلته أبدًا، ولما أيقن أن توسلاته لن تفيد، أمام صمت علي واستمراره في دفعه، حاول استعطاف الرفاق الآخرين كي يتوسطوا لإقناعه بإخلاء سبيله، لكن توسلاته قوبلت بصمت مماثل، فسلّم أمره لله وهو يفكر في نهايته الوشيكة.

بجانب جدار "عَرِم"(٣) أحد الحقول النائية، غير المزروعة، توقفوا للاستراحة بعد أن قيدوا يدي ورجلي الأسير الذي لم يكن غريبًا على علي؛ فهو ابن جيرانهم المعروف بسوء سلوكه وأذاه للآخرين وقد تسبب في الكثير من المشاكل لأهله. عازب وعاطل عن العمل بإرادته، يقضي معظم نهاره في النوم وليله في السهر والتسكع في أرجاء القرية.

كانوا بحاجة إلى ساعتين أو ثلاث للنوم، بعد أن مشوا مسافة طويلة دون توقف منذ مغادرتهم المعسكر، لكن مراد كان يفكر في أمر يخشى حدوثه أثناء نومهم. اقترب من عليّ الغاضب والجالس بعيدًا من الآخرين وهمس في

(٣) العَرِم: بناء أو حاجز يُشـيَّد حول الحقول المرتفعة عن مسـتوى الأرض المحيطة، وظيفته تثبيت التربة ومنع انجرافها.

أذنه:

- لا أظنك تنوي القيام بعمل ما ونحن نائمون.
- ليس وأنتم نائمون.

اعتدل مراد في جلسته، وهيأ نفسه لسماع ما يبيته رفيقه، وسأله سؤال من يعلم الإجابة:

- وحين نستيقظ؟

أدرك عليّ ما يجول في ذهنه، ورد عليه بحزم:

- ماذا تعني؟ هل تظن أننا جئنا للتسلية.. أم أن إصراركم على اللحاق بي كان من أجل منعي؟
- لم نأتِ لأي غرض آخر سوى الوقوف إلى جانبك، لكني أرى أنك قد حققت ما تريد، وحسبه ما ناله من الخوف والذعر، حتى أنه تبول على ثيابه، ولا أظنه سيكرر ما فعله مرة أخرى.
- هل تنتهي عقوبة أي خسيس يعتدي على حرمات الناس ليلًا، ويقلق سكينتهم بالتبول على ثيابه لينجو بفعلته؟
- أقدر غضبك، لكن العقوبات وُجدت من أجل القضاء على الجريمة وحماية الناس منها، فإن تحقق الهدف بالردع والتوبة لم يعد ثمة ما يستدعي العقاب.

- إن توقف عن أذية أسرتي سيفعلها مع آخرين.

استمرا في الجدال، بينما الآخرون غارقون في النوم في العراء. وحده الأسير جافاه النوم، لم يشغل باله سوى الخلاص من المصير الذي ينتظره.

كان عليّ مصرًّا على إنهاء حياة الشاب، لكن مراد نجح بعد طول إقناع في ثنيه عن ذلك، مكتفيًا بما ناله الأسير من رعب، مؤكدًا أن ما جرى سيكون كافيًا لردعه عن أذية فاطمة أو غيرها. ولإضفاء أثر لا يزول من ذاكرة الشاب، اتفقا على إطلاق سراحه بطريقة "احتفالية" تزرع في قلبه الخوف إلى الأبد.

مع بزوغ الفجر، استيقظ النائمون. تقدّم ذياب نحو الأسير الجاثي على ركبتيه، والخنجر يلمع في يده. لمح في عينيه فزعًا حادًّا، وفي نظراته ارتباكًا يقرأ النوايا قبل الأفعال. جلس القرفصاء أمامه وقال بنبرة هادئة لكنها قاطعة:

- "اهدأ وكن رجلًا، حتى أمام الموت لا يليق بك أن تكون جبانًا إلى هذا الحد."

مد الخنجر إلى رباط القيد وقطعه، ثم اقتاد الشاب إلى حيث يجلس عليّ ورفاقه. وقف الأسير أمامه، متوسلًا، يلهث بكلمات الاعتذار، يقسم أنه سيتوب، وأنه لن يعود إلى أفعاله المشينة.

- انطلق. أمره عليّ بتجهم.

تلعثم الأسير معبرًا عن حيرته مما ينبغي فعله. زمجر عليّ بأعلى صوته:

- اغرب عن وجهي قبل أن...

أطلق الأسير ساقيه للريح هاربًا بأقصى سرعته، وبدأ الرفاق بإطلاق الرصاص من الخلف لتمر من جانبيه، يسرة ويمنة، ومن فوقه، وهو يقفز ويعوي وكأنه يجري حافيًا وسط حقل من الأشواك. وبعد ابتعاده مسافة على هذا الحال سقط على وجهه صريعًا. توجهت الأنظار بدهشة نحو علي، وقد خامرهم شك بأنه أخل بالاتفاق وأرداه قتيلًا، لكن ملامحه المذهولة كانت نسخة من وجوههم. توجهت أنظارهم نحو مراد الذي كان يخفّض بندقيته ببطء، وقال وهو يحدق أمامه:

- كم فتاة مثل فاطمة قادرة على حماية نفسها؟ وكم منهن تستطيع أن ترفع صوتها حين تتعرض لمثل هذا الموقف؟

صمت لحظة ثم أضاف:

- يؤسفني أن أرى إنسانًا يموت بهذه الطريقة، خائفًا، لكني فكرت أننا ربما نكون قد أطلقنا سراحه ليعود ويمارس أذاه ضد أخريات لا يملكن من يدافع عنهن. لم أرد أن أمنحه تلك الفرصة... ومع ذلك، أنا في غاية الاستياء مما حدث.

❊ ❊ ❊

الفصل الرابع عشر

عاد الرفاق إلى معسكرهم وإلى مهامهم اليومية. وكان اللافت للانتباه هو التغيّر الذي طرأ على سعيد، فقد اندمج مع المجموعة وتخلى عن عزلته، ولم يعد يثقل قلبه شعور بالدونية. الجميع هنا يقدّرونه ويستمعون إليه، وهذا ما كان يحتاجه. حياة المعسكر أعادت إليه الثقة بنفسه فأصبح يتحدث دون تحفظ أو عقد، غير أن خبرًا في إحدى القرى القريبة نكأ جرحه وأعاد إليه ذكرياته وفي الوقت نفسه منحه شعورًا غامضًا بالارتياح.

شاع خبرٌ بأن أحد الثوار عاش تجربةً مماثلة، لكن بنتيجةٍ مختلفة؛ إذ بادلته الحب فتاةٌ ذات نسب، وهربا معًا إلى حيث لا يعلم أحد. وذاع الخبر بأنه خطفها، تاركًا أسرة الفتاة في حالٍ مزرية، لا يجرؤون معها على مواجهة أعين الناس.

أصبحت القصة موضوعًا للنقاش بين الرفاق في المعسكر، وانقسموا بين مؤيد لتصرف الحبيبين، ومستنكر من جرأتهما، ومتضامن مع أسرة الفتاة. وهو ما أثار حفيظة سعيد فحدث نفسه:

"حال أسرتها يدعو للشفقة فعلًا، لكنهم لا يستحقون الشفقة، لعل هذه الحادثة تجعلهم يشعرون بنا. هم لم يشفقوا علينا يومًا، فلينالوا نصيبًا من معاناتنا. لكن هؤلاء قوم لا يشعرون، نحن في نظرهم كالحشرات. أيشعر أحد بمعاناة الحشرات؟ ربما تزيدهم هذه

القصة بغضًا وكراهية لنا وربما يسعون للانتقام. لو أنهم تخلوا عن هذا التمييز الغبي لعاش الجميع سعداء. على أية حال ربما تكون هذه بداية كسر هذه العادات اللعينة."

ثم تذكّر فتاته: "آه... تلك الحمقاء كانت بلا قلب ولا عقل، لو أنّها امتلكت أحدهما لربما حذونا حذوهما."

فجأة سمعه رفاقه يصيح متسائلاً:

- أخبروني يا رفاق، هل أنتم مثلهم؟

تبادلوا النظرات، ولم يفهموا ما يعنيه. سأله عليّ:

- ما الذي تعنيه؟ مثل من؟!

- هل أنتم كالبقية؟ أعني، رغم تفاوت الناس في الطيبة أو القسوة، إلا أني لم أجد حتى من بين اللطفاء من يقدرنا. تجدهم لطفاء في كل شيء، إلا في نظرتهم إلينا. اعتادوا على رؤيتنا نعمل بلا تذمر، نهان فلا نغضب، نبتسم حين نُشتم، فظنوا أننا راضون بما نحن فيه.

ربت ذياب على كتف سعيد وقال:

- أفهمك، الناس يتعاملون مع وضعكم وكأنه اختياركم.

- ولا يتركون لنا اختيار الحياة التي نريدها، فهل أنتم كذلك؟ ما الذي يجعلكم مختلفين وأنتم أبناء هذا المجتمع!

قال عبدالله:

- لا أرى ما يبر شكك هذا وقد وجدت نفسك بيننا أخًا ورفيقًا.

قال سعيد:

- الهروب من الإجابة إجابة.

رد عبدالله:

- لسنا كذلك. ربما كنا في السابق كغيرنا، نحتاج لفهم القضية، أما الآن، وبعد إيماننا بالثورة وأهدافها، وبوجودك معنا، فقد تغيّرت نظرتنا. أصبحنا نرى الناس سواسية.

اقتنع سعيد بالإجابة، فقد لمس في قلوبهم صدقًا لم يعتده من قبل، ولم يجد في تعاملهم معه ما يثير الشك.

بعد أسابيع في المعسكر، عادوا إلى منازلهم لقضاء إجازة قصيرة مع أسرهم، على أن يعودوا بعدها لمهمة أصعب، كانوا قد نسقوا لها مع علوش والقائد أبو مطيع.

❊ ❊ ❊

الفصل الخامس عشر

بأفكار تتزاحم في رأسه، خرج سعيد من منزله في القرية صباحًا مرتديًا بنطالًا متعدد الجيوب، وقميصًا مخططًا، وشالًا على كتفيه. شدّ البنطال بحزام عسكري عريض، ووضع في جرابه مسدسًا، وعلى كتفه بندقية. كان يعلم أنه ليس بحاجة لحمل البندقية والمسدس معًا، فاحتمال استخدام أيٍّ منهما معدوم، لكن رغبته في الظهور بهيئة مقاتل ذي هيبة دفعته إلى ذلك.

عقد العزم على ألّا يتغاضى عن نظرات الاستصغار التي اعتادها في الماضي. الآن يتشوّق للدخول في شجار مع أي شخص يحاول تذكيره بأصله، بل ومستعد لأن يفقأ عين من تسوّل له نفسه ذلك. كان أيضًا متأهبًا لمواجهة الفتاة التي هام بها حبًّا يومًا ما، لكن هذه المرة بشعور مختلف؛ فقد عجز في السابق عن الرد على إهانتها حين أعادت إليه رسالته، إذ ألجمته الصدمة وأثقلته مشاعر الدونية، أما الآن فلا شيء سيمنعه من الرد بعنف إن سمع منها ما يسيء إليه.

لقد استقوى عليه الجميع بحكم التقاليد، دون أن تكون لهم ميزة حقيقية تبرر موقف الاستعلاء. فلمَ لا ينتصر لنفسه بالسلاح نفسه ويعيد لها اعتبارها؟ هكذا حدّث نفسه، وهو يمشي شامخًا نحو الساحة التي يتجمع فيها القرويون كل ظهيرة تحت ظل شجرة معمّرة، بعد أن يفرغ بعضهم من أعمالهم الصباحية. كان قد قام بجولة في الحقول، مارًّا بالمكان الذي اعتاد أن ينتظر

فيه مرور فتاته. تمتم ساخرًا: "كم كنت غبيًا وساذجًا!"، بينما صورة العاشق الأبله كانت تتشكل في ذهنه.

لكن تلك التجربة لم تكن شرًّا محضًا؛ فمن هذا المكان بالتحديد اتخذ قراره الحاسم بأن يتغير. وها هو الآن يقف بكبرياء بين الأهالي تحت ظل الشجرة المعمّرة، يتحدث إليهم من موقع مختلف؛ موقع الثائر الذي يحظى بأهميته في الجبهة.

اختلف أسلوب الحديث معه عمّا كان في الماضي القريب. أصبح محور الاهتمام، ويجد آذانًا صاغية وعيونًا متطلعة نحوه إذا تكلّم. أشعره ذلك بالرضا، ولم يتبقَّ له سوى مواجهة من كسرت قلبه. وقد هيأت له الصدف أن ينهي انتقامه في يوم واحد.

في طريق عودته إلى بيته، لمحها تسير في أحد الأزقة بمفردها. كانت تحدق به، لكنه أشاح ببصره عنها، متعمدًا إظهار اللامبالاة. تابع السير مرفوع الرأس، ثابت النظرات إلى الأمام، قاطعًا المسافة الفاصلة بينهما دون أن يمنحها نظرة تحمل أي معنى. كان قد هيأ كلمات ليلقيها في وجهها علّها تشفي غليله، لكنه اكتفى بتجاهلها وكأنه لم يشعر بوجودها.

تمنى لو كانت له عين ثالثة يرى بها إن كانت أطالت النظر إليه، لا لأنه لا يزال يحبها، فقد تحولت مشاعره نحوها إلى كراهية، ولا لأنه يظن أنها غيّرت رأيها فيه، فقد تخلى عن أوهامه وأصبح أكثر واقعية. أدرك أن مسألة التمييز ليست

مرتبطة بهذه الفتاة أو بغيرها، بل بثقافة مجتمعية متجذرة تحتاج إلى جهد طويل لاستئصالها، واستبدالها بثقافة ينتصر فيها جوهر الدين والإنسان على العادات الجائرة.

لكن لماذا يكرهها إذا كانت التقاليد سارية على الجميع؟ بعد تفكير، وجد أنه يكرهها لا لرفضها إياه، بل للطريقة التي عبرت بها عن ذلك الرفض؛ كان يمكنها أن تعتذر بلطف وتطلب منه نسيان الأمر. لو فعلت لتحوّل حبه إلى احترام، لكنها آثرت أن تهينه وتجرح آدميته.

ما كان أحوجه في تلك اللحظة إلى تلك "العين الثالثة" ليدرك أن الانبهار المؤقت به لم يُغيّر حقيقة النظرة إليه، وأن خلف مظاهر الإعجاب تكمن عقول وعيون لم تتخلَّ عن أحكامها على أبناء جلدته. وأن خلف الانبهار المؤقت به تكمن ثقافة متجذرة لا يمكن تغييرها بحفنة من البطولات.

في زاوية المجلس الصغير، جلس سعيد قبالة والده، تحيط به عائلته، وملامح العبوس تكسو وجهه. لم يكن ذلك العبوس سخطًا على أهله، بل ضيقًا من موضوع أثقل صدره. التفت إلى أبيه وقال:

- سأطلب منك طلبًا يا أبي راجيًا منكم تلبيته.

- اطلب يا ولدي.

جال سعيد ببصره نحو إخوته ليُفهمهم أن الحديث يعنيهم جميعًا، ثم أعاد النظر إلى أبيه قائلاً:

- أريدكم أن تتوقفوا عن خدمة الناس، لا تذبحوا لأحد، ولا تقدموا خدماتكم في مناسباتهم بعد الآن.

رفع والده حاجبيه متعجبًا:

- لم أعد أفهمك يا بني. لماذا نتوقف عن عمل هو مصدر رزقنا؟

لوح سعيد بيده وهز رأسه نافيًا وقال بهدوء:

- لا نريد رزقًا كهذا. لدينا أرض تكفينا، كالآخرين، وحتى لو لم يكن لدينا شيء، فالموت جوعًا أشرف من حياة الذل هذه.
- وإن توقفنا عن خدمة الناس، فمن سيقوم بها ونحن خُدّام القرية؟

قال سعيد وقد اشتد به الغضب:

- لم يخلقنا الله خُدّامًا لأحد. ليتدبروا أمورهم بأنفسهم أو فليذهبوا إلى الجحيم. لماذا تشغل بالك بمصير أناس يقابلون خدمتك بازدراء؟ لسنا مدينين لأحد بشيء، فلماذا نحكم على أنفسنا بأن نظل تحت أقدامهم؟
- لقد وجدنا أنفسنا على ما نحن عليه، وهذا قدرنا يا ولدي.
- ليس قدرنا إنما هو اختيارنا. فلا تلُم القدر على ما اخترته بنفسك. وها أنا أختار لي ولكم طريقًا آخر.
- يا سعيد ليس بمقدورنا مواجهة القرية، نحن مجبورون."

- من يجبرك؟ قل لي؟ من الآن فصاعدًا، إذا طلب منك أحد أي شيء، فقل له أن يطلبه مني أنا شخصيًا، حتى لو كان شيخ القرية نفسه. وحينها سترى أي وغد منهم يجرؤ على ذلك.

الأجيال، دائمًا، متفاوتة في طريقة التفكير. والأفكار البالية لا تُورَّث لأن الأبناء يقتنعون بها، بل لأنهم يفتقرون لشجاعة التمرد عليها. ومع غرابة ما طرحه سعيد، أعجب إخوته بما سمعوا. ربما آن الأوان لأن يمتلكوا حرية الاختيار فيما يفعلون.

❊ ❊ ❊

الفصل السادس عشر

في منزل واسع من طابق واحد، يختلف في طرازه عن المنازل القديمة، كان عبدالله يجلس مع أسرته في غرفة جلوس فسيحة ذات نوافذ عريضة. وأثناء تناولهم طعام الغداء، أعاد والده طرح الموضوع الذي سبق أن ناقشه معه:

- ليس لنا بعد الله سواك أنت وأخيك، لا تفجعنا فيك يا ولدي، أمك مشغولة الفكر والقلب عليك."
- لا يموت الإنسان ناقص عمر يا أبي. والشجاع يموت مرة والجبان يموت ألف مرة، ولن يُنجي حذر من قدر، ألا تؤمنون بالقدر؟ أم أنكم تظنون أن خوفكم عليّ سيحميني إلى الأبد؟
- نؤمن بالقدر، لكن..."

قاطعه عبدالله:

- اطمئنوا، الأمور في الجبهة ليست كما تتصورون.

تدخلت الأم بالقول:

- عبدالله.. ولدي حبيبي، لا أتصور الحياة بدونك، ولا أظن أن باحتمالي العيش ساعة واحدة لو حدث لك مكروه لا قدر الله.
- لن أكون وحدي هناك! لو أن كل أب وأم منعوا أبناءهم من الذهاب إلى الجبهة لما بقيت هناك مقاومة.

تدخل عبدالرحمن وقال:

- اطمئني يا أمي... وأنت يا أبي، عبدالله ورفاقه قادرون على حماية أنفسهم والعودة سالمين، ثم إن أخبار الانتصارات تتوالى وسيتم الحسم قريبًا، ليعود بعدها إلى بيته ونعيش في سلام إن شاء الله.

منح عبدالرحمن عبدالله دافعًا أكبر للعناد والتمسك بقراره، فابتسم غبدالله، وصمت الوالدان حين أدركا أن لا حيلة لإقناعه.

قبل العصر بقليل، وفي ديوان المنزل، اختلطت رائحة البخور بدخان المداعة[٤] التي كان الأب يدخنها وهو متكئ، يتناول القات، ومنهمك في البحث بين محطات المذياع عن بثّ مناسب لسماع الأخبار. أمامه مكعبات السكر، وعلى النافذة المفتوحة إلى يمينه وُضعت زمزمية ملفوفة بخيشة مبللة بالماء لتزداد برودة ماءها حين تتعرض للهواء.

توقف أبو عبدالله عند محطته المفضلة ـ هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) ـ ليستمع إلى أخبار تقدّم الجبهة وسيطرتها على مناطق كثيرة.

تلك كانت طقوس أبي عبد الله في جلسات القات والتدخين، يشاركها مع ابنه البكر عند زيارته للبيت، بينما يكتفي عبد الرحمن بمشاركتهما المجلس

---

(٤) – المَداعَة: أداة تقليدية للتدخين الشعبي منتشرة في اليمن وأجزاء من الجزيرة العربية، تشبه النرجيلة (الشيشة) لكنها أكبر حجمًا، وتتميّز بقصبة أو ماسورة طويلة قد تمتد بطول المجلس، بحيث تتيح تداولها بين الجالسين كلٌّ في مكانه.

والحديث، من دون أن يتناول القات أو يدخن التبغ.

في السطح، كانت الأم منشغلة بإشعال قطع حطب صغيرة في الموقد لتحصل على جمر إضافي للمداعة، قبل أن تنضم إليهم وتشاركهم الحديث:

قال الأب:

- ألم يكن من الأفضل لو أننا انضممنا للجماعة في ديوان عمّك؟

قال عبدالله:

- في المرة القادمة إن شاء الله، دعنا نختلي بأنفسنا اليوم.

في تلك اللحظة أعلن المؤذن وقت صلاة العصر فنهض الأب والأم للوضوء والصلاة. وأثناء غياب والديه اقترب عبدالرحمن من أخيه ووضع مرفقه على كتف أخيه في إشارة إلى أنه سيفضي إليه بسر. قال له:

- أريد أن أحدثك بأمر يا شقيقي.
- يبدو أن الأمر له علاقة بالقلب. هل تحب فتاة وتريد مني التوسط لدى والدينا لخطبتها؟
- لا تحاول ادّعاء الفراسة، ليس في نيتي الزواج، خاصة أنك لم تتزوج بعد، وتعلم إصرار أبويك على تزويجك أولًا.
- طيب، أبعد مرفقك عن كتفي، فهو يؤلمني.
- كتفك يحمل البندقية على الدوام، ولن يؤثر عليه مرفقي.

- وهل تظن نفسك بوزن بندقية؟

ضحك عبدالرحمن وقال بصوت منخفض:

- أفكر منذ فترة في الانضمام للجبهة، وأريدك أن تساعدني في إقناع والديّ، ثم تعرّفني على رفاقك والقادة.

رد عبدالله دون تريث:

- هذا غير ممكن. هل أيدتني وقت الغداء فقط لتكسب دعمي في هذا الموضوع؟
- لا، لا أبدًا.
- أبوك وأمك يطلبان مني التخلي عن الجبهة، وأنت تريد مني أن أقنعهما بانضمامك! ألا تفكر فيهما! من سيعتني بهما في غيابنا إن أصابهما مكروه –لا قدر الله؟
- يمكننا التناوب بين المنزل والجبهة؟
- إنسَ الأمر. لا تزعجهما بهذا الموضوع ولا تضف إلى همومهما مزيدًا من القلق.

امتعض عبدالرحمن من رد أخيه، بينما كان عبدالله يفكر في سبب آخر لم يصرّح به، سبب يحاول هو نفسه أن يتجاهله حتى بينه وبين نفسه. كان يخشى أن ينضم عبدالرحمن للجبهة فيشاركه البطولة أو يسرقها منه، وهو إحساس لم يزاحمه إلا خوفه الحقيقي على أخيه من أن يصيبه مكروه فيتحمل هو مسؤولية ذلك فيما بعد.

هذه الفكرة أعادته لحادثة قديمة، فقال لأخيه:

- أنا أيضًا أريد أن أصارحك بشيء.

صمت عبدالرحمن، فاستطرد عبدالله:

- هناك أمر يؤلمني منذ زمن، وأريد أن أصارحك به. أتذكُر ذلك اليوم حين استعدنا غنم الراعي؟

طأطأ عبدالرحمن رأسه خجلًا وقال:

- آسف يا أخي، كان تصرفًا جبانًا مني. ضعفت حينها، وأغواني مديح الرجال. لم تكن لدي نية مسبقة، وصمتك جعلني أستسلم للإطراء فظننت أن الأمر لا يهمك.

- لقد أخطأت بحق نفسي أيضًا.

- فكرت أن أقول الحقيقة للناس، وسأفعل ذلك الآن أو غدًا.

- إياك أن تفعل. لا جدوى من ذلك، كما أني لا أريد تحطيم صورتك أمام أحد. ليبقَ الأمر بيننا. أنت أخي وسأظل فخورًا بك.

- وهل طابت نفسك الآن؟

- نعم، كنت فقط بحاجة للبوح وينتهي كل شيء.

عاد الأب إلى مجلسه. نظر إليهما متفحصًا وقال:

- صمتكما يعني أنكما تخفيان عني شيئًا.

جلس في متكئه، وأشعل المذياع لدقائق قبل أن يخفض صوته ويسأل عبدالله:

- يقال بأن أفراد الجبهة شيوعيون، ويشاع بأن الشيوعية تعني الكفر! هل أنتم كذلك حقًا؟

ابتسم عبدالله وقال:

- لا أعرف معنى الشيوعية بدقة. لو سألت صديقنا مراد لشرحها لك بإسهاب، لكني فهمت أنها تعني تقاسم الممتلكات بالعدل ليعيش الناس كافّةً في مستوى واحد.

سأل الأب باستغراب:

- هل يعني ذلك أن نقاسم الفقراء ما نملكه؟

رد عبدالله:

- ونقاسم الأغنياء فيما يملكونه أيضًا.
- لماذا يتقاسم الناس أموالهم التي كسبوها يعرق جبينهم؟
- هو نظام اقتصادي واجتماعي كما يقولون، يسعى لتحقيق العدالة والمساواة، ومنع الاستغلال والكسب غير المشروع عن طريق السيطرة على وسائل الإنتاج... هذا ما فهمته من مراد.
- وهل أنتم شيوعيون إذن؟

ضحك عبدالله وقال:

- أبي... باستثناء قلة من المثقفين، فإن غالبية الثوار أناس بسطاء، لا يفهمون هذه الأفكار العميقة. هم يحاربون فقط للتخلص من الظلم والاستغلال، وهذا كل ما يشغلهم.
- وهل الشيوعيون كفار كما يقال عنهم؟
- الشيوعية نظام وليست دينًا، والإيمان لا يحول دون تطبيق أي نظام، كما أن أي نظام لا يمنع بالضرورة ممارسة الإيمان أو يحد من حرية التدين.
- يقولون أيضًا إن الثوار يشربون الخمر.
- وما رأيك في ما يقولون؟
- سألتك لأني لا أعلم.
- بحسب علمك، هل يشرب أفراد الجيش الخمر؟
- بالتأكيد، منهم من يفعل.
- وهل يوجد أناس من قريتنا يشربون الخمر؟
- نعم هناك كثيرون.
- إذن، هناك أفراد في المقاومة يتعاطون الكحول أيضًا.. فلماذا هو حرامٌ على من يشربه في الجبهة، وحلال على من يفعل الشيء نفسه في القرية وفي معسكرات الجيش؟

صمت الأب وهو يفكر في ما قاله ابنه، وتابع عبدالله كلامه:

- هذه الأشياء ليست لصيقة بفئة من الناس دون غيرهم، ولكن العدو يشيطن خصومه، وهذا جزء من الحرب النفسية.

نظر عبدالله إلى أبيه، فقرأ في عينيه ما لم يفصح عنه، فقال مطمئنًا:

- لا تقلق يا أبي، أنا لا أشرب الخمر.

❊ ❊ ❊

الفصل السابع عشر

كان والد مراد قد عاد من عدن واستقر في قريته مع زوجته العدنية وأبنائه منها. لم يعد سنّه يسمح له بالعمل حمّالًا كما كان من قبل، فاختار في القرية أن يوسّع نشاطه الزراعي، مضيفًا إلى القمح والذرة والشعير محاصيل أخرى؛ فزرع الخضار والبن والقات، وكانت أرباحها أوفر بكثير من زراعة الحبوب.

كان والداه قد توفيا بعد عودته إلى القرية، فانتقل للسكن في بيت أبيه، بعد اقتسام الميراث مع شقيقه. بيت العائلة قديم، لكنه متين ومرتب، وقد أضاف إليه والد مراد أثاثًا عصريًا ومستلزمات حديثة. في هذا البيت عاش مراد، وجعل من زاوية في غرفته مكتبة صغيرة تضم كتبًا وروايات، يعود إليها كلما سنحت له فرصة للقراءة.

بعد أن أنهى مراد فطوره، أعدّت له زوجة أبيه كوبًا من الشاي، وهو رفيقه الدائم أثناء ممارسته هوايته المفضلة. جلس يتصفح كتابًا كان قد انقطع عن قراءته بسبب ظروفه، ولم تمضِ لحظات حتى دخل أخوه الأصغر. قال مبتسمًا:

- أنا أقرأ كتبك أثناء غيابك.

ابتسم مراد بود وقال:

- أنا سعيد لأنك تقرأ. اعتبر هذه الكتب ملكك. ما نوع الكتب التي تستهويك؟

فكر الصغير قليلًا ثم أجاب:

- ليست لدي ميول واضحة، لكني أستمتع أكثر بقراءة الروايات.

ربت مراد على كتف أخيه، وداعب خده بيده الأخرى وقال:

- إذن فقد اخترت الطريق السهل. الروايات ممتعة، وفيها عناصر تشويق تبعد الملل، وفي الوقت نفسه تحمل أفكارًا ومعارف. إنها بداية جيدة، لكن أنصحك بالتنوع في قراءاتك. المهم أنك بدأت، والأهم ألا تتوقف.

بعد انصراف أخيه الصغير بدقائق دخلت أخته، وكأنها خمنت أنه ينتظرها، أو أنه كان ينوي محادثتها في أمر يشغله. نهض لاستقبالها مبتسمًا واحتضن رأسها وقبله. جلسا متقابلين. قال لها:

- لا شك أن أختي الصغيرة والجميلة جاءت للحديث في أمر يشغل بالها.
- لا، فقط اشتقت إليك. أضافت مازحة: أم تريدني أن أنصرف؟
- اشتقت إليك أنا أيضًا، وكنت على وشك المجيء إليك لنتحدث.
- خير إن شاء الله.
- هل أنت سعيدة بخطوبتك لأحمد؟

ابتسمت وقالت:

- هو ابن عمي، أعرفه ويعرفني، وأنا سعيدة بذلك، ولا أرغب بالزواج من شخص غريب قد يفاجئني بسلوك لا يعجبني.
- لكن أحمد ينوي السفر قبل الزواج، وقد يغيب لعامين على الأقل.

ردت مبتسمة:

- لست متلهفة على الزواج، كما أن الوقت ما زال أمامي.

ابتسم مراد وقد اطمأن إلى أن أخته تتمتع بالحكمة والذكاء، وقال:

- أردت فقط التأكد من رضاك، وأنك لا تعانين من أي ضغوط.
- أنت تعرف طيبة أبي وأمي وحسن معاملتهما. وحتى لو واجهتُ أي ضغوط فأنت ملجأي وسندي.

قبّل جبينها بحنان ثم سألها عن أبيه فقالت:

- كالعادة، خرج بغنمه إلى المرعى بعد صلاة الفجر.

❊ ❊ ❊

الفصل الثامن عشر

بعد أن تناول ذياب الغداء مع والدته في المنزل، استأذنها لقضاء وقت المقيل المعتاد مع أعمامه الثلاثة: محسن وحميد وسليم، واعدًا إياها بألا يتأخر عن وقت المغرب.

لم تكن أمه راضية عما يفعله ابنها، ولا تشعر بالطمأنينة تجاه أعمامه، فهي تظن أنهم يدفعونه للقيام بعمل خطير. تمنت لو أنه لم ينضم إلى المقاومة، حتى لا ينفذ ما يدور في رأسه. سألته وهو يتأهب للخروج إن كان هناك آخرون سيتواجدون معهم في المقيل من خارج الأسرة، فجاءت إجابته النافية لتضاعف قلقها وحيرتها.

كان جو المجلس هادئًا في البداية، ثم سرعان ما علاه صخب الضحكات وهم يتبادلون النكات والمواقف الطريفة، حتى ليخيّل لأي عابر أنهم لا همَّ لهم سوى الضحك. وبعد جولة طويلة من المرح، حوّل العم حميد مسار الحديث إلى موضوع جاد كان يشغل الناس آنذاك، فقال لذياب:

- قل لي يا بني، هل تنوي المقاومة تصفية جميع المشايخ؟

أعادهم ذياب إلى جو المزاح فقال:

- لا زلت تناديني (بُني)، رغم أنك تكبرني بأقل من ثماني سنوات! كنت أحتملها منك في السابق، أما الآن فأنا محارب وأستحق التبجيل.

تدخل العم سليم ضاحكًا:

- وماذا عني وأنا الأصغر؟ سأظلّ أناديك يا بني رغمًا عنك.

قال ذياب:

- أنا أناديكم بأسمائكم بلا ألقاب أو صفات، في محاولة لرفع التكلف بيننا.

قال العم محسن وهو الأكبر بينهم:

- إياك أن تناديني باسمي المجرد يا ولد.

ضحك ذياب وقال:

- كما تشاؤون، الحقيقة أنا بحاجة لسماع كلمة بُني.

تأثر الأعمام وقال العم محسن:

رحمك الله يا أخي وسامحك، لولاك ما كنا بحاجة إلى كل هذا.

في محاولة للخروج من جو الحزن الذي انعطف إليه الحديث قال ذياب:

- لا تحزن يا عمي، الوقت يمضي، والوعد يقترب. سنستعيد ما هو لنا دون حاجة لانضمام المزيد منّا للمقاومة. اهتموا بأموركم في القرية وبأمي، وسأنوب عنكم في هذه الحرب. اعتمدوا علي.

تنهد العم حميد وقال:

- نحن فخورون بك يا ذياب.

قال ذياب ضاحكًا:

- لا بأس... قلها يا عم، قل (يا بُني)، كنت أمزح معك. أما عن سؤالك، فالمشايخ المؤيدون للثورة ليسوا هدفًا للمقاومة، إنما الفاسدون والمتعاونون مع الحكومة فقط.

أنهى ذياب مقيله وعاد مبكرًا كما وعد أمه. وجدها في المطبخ الخارجي تعجن القمح استعدادًا للعشاء، فقال مسرورًا:

- بما أن أمي العزيزة تعجن فلا شك أنك تعدين لنا شيئًا مميزًا. ما هو يا ترى؟

قالت الأم وهي تنظر إلى العجين بين يديها:

- جاءت جارتنا واستلفت ما تبقى من أقراص الذرة، فلم أجد ما أقدمه على العشاء سوى أن أعد لك ولأختك خبزًا على الصاج.
- إذن عليّ أن أذهب لأشكر جارتنا التي خلّصتنا من أقراص الذرة.

والتفت على عقبيه متظاهرًا بالذهاب.

- إلى أين أيها المغفل؟ تعال وأخبرني بما دار بينكم في مجلس أعمامك.

عقد حاجبيه وقال بضجر:

- لا تشغلي نفسك بهذه الأمور يا أمي. لا شيء جديد، قضينا وقتًا ممتعًا، هذا كل شيء.

- عندما تُبسّط الأمور ينتابني القلق أكثر. لا أشعر أنك بأمان حين تكون معهم يا بني. أنت لا تدرك عواقب ما تدبرونه. سيضحون بك بينما يعيشون هم في أمان.

رد ذياب وقد أزعجه حديث أمه عن أعمامه:

- أنت تبالغين يا أم ذياب، أعمامي حريصون على سلامتي ويقفون خلفي داعمين، فلا تسيئي الظن بهم.
- إذن لماذا لا ينضمون معك إلى الجبهة، أتنقصهم الشجاعة؟
- لا تنقصهم الشجاعة، كل ما في الأمر أني مهتم أكثر منهم، أنا أقوم مقام أبي الذي كان أكبرهم سنًا.
- ماذا تعني؟
- لا شيء يا أمي... سأنتظر العشاء في الداخل.

❊ ❊ ❊

الفصل التاسع عشر

في قرية الصِّيوان، عُثر على الشيخ مسعود ممددًا على ظهره فوق أرض صخرية في مجرى سيل واسع تحيط به من الجانبين جدران ترابية نحتتها مياه السيول. تلتقي في هذا المجرى مساقٍ صغيرة عديدة، تتجمع مياهها في مواسم الأمطار لتكوّن سيلًا كبيرًا يرفد الأراضي الواقعة أسفله بالماء.

كان الشيخ حاسر الرأس، وقد سقط عنه الشال أثناء ارتطامه بالأرض، وإلى جواره بندقيته الـ"جرمل"(٥) وعصاه المعقوفة الطرف، وكلاهما ملطخ بدمه. اخترقت جسده رصاصات عدة وضعت حدًّا لحياته، دون أي أثر لمقاومة، ما يرجّح أنه لم يجد فرصة للدفاع عن نفسه.

تجمّع الأهالي حول الجثة بعد أن دوّى صوت مزارع مذعور مرّ بالقرب من المكان، فأطلق صيحات استغاثة دفعت أهل القرية إلى الهرع نحوه. وقفوا مذهولين، يتساءلون بحيرة: من الفاعل؟ ولماذا؟! سيطر الخوف على بعضهم، بينما لم يصدق آخرون أن هذا الشيخ المهاب، الذي كان يفرض هيبته أينما حلّ، صار جثة هامدة لا تقوى على إبعاد ذبابة عن وجهه.

كان الوقت صباحًا، بعد الشروق بقليل، ويبدو أنه مضى على وفاته قرابة نصف ساعة. لم يشهد أحد الحادثة سوى راعٍ، ورغم أن أصوات الرصاص

---

(٥) الجَرْمَل في الاستعمال الشعبي يُطلق على بندقية قديمة ألمانية الصنع، كانت منتشرة في اليمن والجزيرة العربية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.

قد سُمعت وتردّد صداها في الوادي، فإن من سمعها لم يتوقع أنها كانت موجهة إلى صدر شيخهم. سماع الرصاص لا يعني بالضرورة وقوع جريمة قتل. إطلاق النار في القرى أمر مألوف وله أسباب شتى: احتفال بمولود، ابتهاج بعقد قران، أو مطاردة حيوان بري هاجم المزروعات...

الراعي الذي كان يسوق غنمه على ربوة مرتفعة عند الفجر، سمع أصوات الطلقات، ثم بعد أقل من دقيقة رأى سيارة مكشوفة تقل مسلحين. كانت تسير بأقصى سرعة تسمح بها الطريق الوعرة، تدهس النباتات الشوكية والأكوام الترابية، ترتفع وتهبط مع الرمال المتكتلة.

انضم الراعي إلى المتحلقين حول الجثة، وروى ما شاهده. وبالنظر إلى تزامن وقت إطلاق النار مع مرور السيارة بالقرب من مسرح الجريمة، رجّح الأهالي أن الشيخ قُتل على أيدي أولئك الرجال الذين يحملون هوية المقاومة. كما بدا واضحًا أن القتلة كانوا على علم بعادة الشيخ في النهوض مبكرًا والتجول بين أملاكه فجرًا، فراقبوه وأطلقوا عليه النار حين سنحت الفرصة، ثم غادروا مسرعين خارج القرية.

هذه المؤشرات وضعت ذياب في دائرة الشبهات، لكن الراعي لم يجزم بشيء، فقد كانت المسافة بعيدة ولم يتمكن من تمييز ملامح الوجوه بدقة.

بعد تنفيذ المهمة، غادر الرفاق قرية الصيوان متجهين مباشرة إلى المعسكر. كان الرضا يعلو محيا ذياب، وانعكس أثر العملية على بقية الفريق، إذ شعروا

أنهم أدوا واجبًا وطنيًا حقيقيًا، وأن لوجودهم في الجبهة معنى يتجاوز مهمات الإسناد التي غالبًا ما كانوا يُكلَّفون بها لدعم خطوط القتال الأمامية.

صحيح أن البقاء بعيدًا عن مناطق الاشتباك يصيبهم بالملل، لكنهم يدركون أهمية مواقعهم في الجبهات الخلفية لحماية المنطقة، وضمان بقائها تحت سيطرة المقاومة، ودرعًا ضد أي تسلل معادٍ.

❊ ❊ ❊

الفصل العشرون

مرّ عام وبضعة أشهر على تشكيل فرقة القائد علوش. خلال هذه المدة، استمرت الإمدادات البشرية إلى المعسكرات المتاخمة لمناطق سيطرة الجيش، وكانت الفرقة تشارك في المواجهات بلا انقطاع. خاض أفرادها معارك في السهول والجبال البعيدة، دفاعًا عن المواقع المهدَّدة بالهجوم، أو لاستعادة ما سقط منها. وحين تسنح الفرصة، كانت المقاومة تبادر بالهجوم لتوسيع مناطق سيطرتها، مستعينة بقوات إضافية تُرسل من الخطوط الخلفية، وهو ما جعل مشاركتهم في القتال أمرًا دائمًا.

ومع صمود المقاومة وتقدمها على مختلف الجبهات، لجأ الجيش إلى سلاح الطيران والمدفعية الثقيلة لإلحاق أكبر قدر من الخسائر بالجبهات الخلفية. طال القصف القرى المحيطة بالمعسكرات الجبلية، وهي القرى التي ينتمي إليها معظم أفراد المقاومة، في محاولة لبث الرعب في نفوسهم وردع الأهالي الذين يمدونهم بالمؤن والاحتياجات الأساسية، أو يساعدونهم في نقل الأسلحة وإخفائها عند الحاجة.

كان القصفُ المدفعيُّ أشدَّ أثرًا؛ وأيُّ خطأٍ في التصويب يُخلِّف دمارًا وخرابًا في بيوتِ الناسِ وممتلكاتِهم وأرواحِهم. أما الطيران الحربي فكان ينفذ غارات محددة الأهداف قبل أن يعود إلى قواعده، بينما كانت المروحيات تحلق على ارتفاعات منخفضة في مهمات نقل الجنود والمعدات.

أثار تحليق الطائرات رعبًا في نفوس النساء والأطفال، وزاد من توتر الأهالي. كان صوت المحركات المزمجر، تليه لحظة إلقاء الحمولة المتفجرة على مقربة منهم، كفيلًا بتحويل يوم عادي إلى مشهد مروّع. وهكذا باتت حياة الناس مزيجًا من خوف مستمر وإثارة لا تنقطع.

❊ ❊ ❊

الفصل الواحد والعشرون

كان من عادة أهالي القرى، وخاصة الأطفال، أن يتجمهروا حول أي سيارة تقف في القرية. على هذا النحو، اجتمع عدد من الصغار حول سيارة مكشوفة توقفت مقابل الدكان الوحيد في القرية بعد أن خرجت عن الطريق الترابي واستقرت تحت شجرة سدر كبيرة تقع على الجانب الموازي للدكان. معظم الأطفال حفاة، وقلة منهم ينتعلون أحذية مطاطية رخيصة. ثيابهم البالية الممزقة تفصح عن فقرهم؛ أزرار مفقودة، وسراويل مشدودة بخيوط قماشية بدل الأحزمة. ولم يختلف حال بعض رجال القرية عن حال أطفالهم، فأسمالهم البالية وجيوبهم المهلهلة تحكي القصة ذاتها.

كانت السيارة تقل عددًا من المسلحين، منهم عبدالله وسعيد، وفي صندوقها الخلفي رشاش عيار ١٢,٧ مثبت بإحكام. ذلك السلاح الكبير، المحمول على متن السيارة، كان كافيًا ليجذب الصغار للركض وراءها بدافع الفضول والانبهار.

بين الجمع، ثمة طفل صغير يراقب المشهد بعينين متسعتين. لوّح له عبدالله مبتسمًا، فاستدار الصغير مخفيًا وجهه ومتشبثًا بإزار أبيه، الذي كان هو الآخر يحدق في المسلحين بفضول. وإلى جوار عبدالله جلس سعيد، يتفحص الوجوه بصمت، فيما تدور في رأسه خواطر مبعثرة لا مبرر لها، غير أنها أصبحت عادة تراوده كلما وجد نفسه وسط حشد من الناس. أما المسلحون،

فكان على ملامحهم ما يشبه الفخر، وهم يواجهون نظرات القرويين المندهشة المعجبة، الممزوجة بشيء من الرهبة أمام رجال يحملون أسلحة خفيفة على أكتافهم وهيئاتهم توحي بالقوة.

الأطفال، على صغر سنهم، لم يدركوا سبب وجود الطقم العسكري، ولم يكترثوا بتفاصيل الحرب الدائرة حولهم، لكنهم عرفوا أطرافها من أحاديث الكبار التي تتكرر يوميًا. لم يكن ما يدور بين ذويهم وأفراد المقاومة يعنيهم بقدر ما كانت تعنيهم السيارة وتفاصيلها ومن عليها من رجال. أما الكبار، فكان حديثهم يدور حول الوضع الميداني، ومدى تقدم القوة القادمة للقضاء على المقاومة في منطقة قريبة. طمأنهم المقاتلون بأن تلك القوات القادمة من صنعاء قد دُحرت، وأوضحوا أن مرورهم بالقرية كان لأجل اصطحاب أحد رفاقهم من أبناء البلدة.

وبعد نحو نصف ساعة، انضم الرفيق إليهم، فودّعوا الأهالي وانطلقوا بسرعة في مهمة إسناد إلى موقع استراتيجي تتقدم نحوه قوات الحكومة. ودّعهم الأهالي بالدعاء بالنصر والسلامة، وركض الأطفال خلف الطقم العسكري حتى غاب عن أنظارهم وسط غبار كثيف أثارته عجلاته.

المعركة التي كانوا يتأهبون لها لم تندلع. فما إن وصلوا إلى الموقع المحدد، وأثناء انتظارهم للمواجهة، حتى فوجئوا بانضمام مجموعة من الضباط والجنود إلى صفوف المقاومة، الأمر الذي قلب موازين القوى وأجبر ما تبقى من قوات الجيش على الانسحاب.

خلال تلك المهمة، تعرف سعيد على شاب من قرية الصيوان يدعى يحيى. وفي إحدى الأمسيات، أشعلا نارًا وجلسا قرب الدشمة، مستندين إلى جدارها، فيما كانت ألسنة اللهب ترقص أمامهما. حرّك سعيد الجمر بعصا في يده، ثم سأل صديقه الجديد:

- لم تخبرني كيف هو حال قريتكم بعد مقتل الشيخ مسعود، هل تغير الوضع؟

أجابه يحيى بعد أن ألقى عودًا في النار:

- ليس كثيرًا. تم تنصيب ابنه خلفًا له، ومن المبكر الحكم عليه. على أية حال، لم تعد المشيخة طموحًا كبيرًا كما كانت في السابق، فموقف المقاومة من المشايخ قلل من مكانتهم في أعين الناس، وصار الشيوخ المناوئون للجبهة يخشون على حياتهم.

قال سعيد:

- سمعنا أن كثيرًا من أهالي قريتكم تعرضوا لظلم الشيخ السابق، غير أسرة ذياب. هل أصاب أسرتك شيء من ذلك، فكان سببًا لانضمامك للمقاومة أنت أيضًا؟

- أي ظلم تقصد؟!

- استيلاءه على أراضي الناس بالتحايل والابتزاز.

- لم أفهم!

- يبدو أن هناك التباسًا في اسم قريتك... أو أننا نتحدث عن ذيابين مختلفين!
- نحن نتحدث عن ذياب عثمان، أليس كذلك؟

صمت سعيد لحظة. التفت إليه يحيى وقد شعر أن هناك ما يجب توضيحه:

- ما الذي قاله لكم بالضبط؟

بعد أن روى له سعيد رواية ذياب كاملة، تنهد يحيى وهز رأسه قائلاً:

- ما قاله ذياب غير صحيح.
- أواثق أنت مما تقول؟ إذن ما هي الحقيقة؟
- من الواضح أنكم تعرضتم للتضليل.

قال سعيد وقد بدا غضبه:

- كلامك يثير القلق! أفصح بالله عليك!

اعتدل يحيى في جلسته وقال:

- والد ذياب لم يرهن الأرض للشيخ كما زعم، بل باعها طواعية، ولم تكن تلك الأرض كل ما يملكون، بل بقي لهم أراضٍ أخرى يشتركون فيها مع أعمامه. لكن عثمان– رحمه الله– كان مبذرًا، مدمنًا على القات والكحول، وقد بدّد أمواله وممتلكاته على ملذاته.

تعجّب سعيد مما سمعه وقال في حيرة:

- إذن، لماذا كذب علينا ذياب وروى لنا قصة مختلفة؟ بل وورطنا في قتل الشيخ؟!

قال يحيى:

- سأخبرك بما يعرفه أهل القرية، ويمكنك التأكد منه بنفسك:

هناك تنافس قديم على الوجاهة بين عائلة ذياب وعائلة الشيخ مسعود. جد ذياب كان شيخ القرية ويحظى بالاحترام، لكن حين توفي، لم يرَ الناس في ابنه الأكبر عثمان الشخص المناسب لتولي شؤونهم. وأخوته كانوا صغار السن، فاستغل مسعود الفرصة وانتزع المشيخة. عثمان نفسه لم يهتم بالأمر، لكن ذياب حين كبر، ومعه أعمامه وأبناء عمومته، ظلوا يحملون حقدًا على مسعود ويعتبرونه قد اغتصب حقهم.

توقف يحيى قليلًا ثم أكمل:

– العداء بين الأسرتين معروف، وحدثت بينهما صدامات متكررة. لا أنكر أن الشيخ مسعود لم يكن مثاليًا، فقد كان فاسدًا وموالياً للسلطة ضد المقاومة، لكن ما قيل لكم عن استيلائه على أرض ذياب غير صحيح، وقتله لهذا السبب يعد جريمة، خاصة ونحن نقاتل من أجل دولة قانون، ضد سلطة ترتكب مثل هذه المظالم.

خفض صوته وهو يضيف:

– أهل القرية ما زالوا يظنون أن موقفه المعادي للمقاومة هو السبب وراء اغتياله، ويشك بعضهم في أن ذياب لعب دورًا ما، لكن أقصى ما يتوقعونه منه هو أنه أرشدكم إليه.

أنصت سعيد ليحيى مصدومًا، وظل ينظر إلى عينيه عله يقرأ فيهما حقيقة أخرى غير تلك التي سمعها للتو. تذكر حينها تحذير مراد لعلوش من العناصر التي تنضم للجبهة بدافع تصفية حسابات شخصية مع خصومها. بعد لحظة صمت قال سعيد:

– لن تخبر أحدًا من أبناء قريتك؟ لن تشي بذياب حتى لا تنتقم منه عائلة مسعود؟

قال يحيى:

– بالطبع لن أفعل، رغم استيائي مما فعله. اطمئن من ناحيتي، لكن كما قلت لك... هم يشكُّون فيه.

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني والعشرون

في صباح اليوم التالي لعودة سعيد وعبدالله من مهمة إسناد الجبهة في أحد المواقع الاستراتيجية، كان مراد يتجول في أرجاء المعسكر، يستمتع بهدوء الصباح ويحاول مقاومة رغبة جامحة في إشعال سيجارة أخرى. لفت انتباهه سعيد جالسًا على الأرض، مستندًا بكفيه إلى كعب بندقيته، وعيناه شاردتان كما لو كان غارقًا في همٍّ ثقيل أو مستسلمًا لدوامة أفكار لا تنتهي.

اقترب منه وألقى التحية، فرد سعيد بفتور، ثم عاد إلى صمته، يفرك أصابعه بتوتر وينقر الأرض برأس قدمه. ابتسم مراد وقال:

- كأنك عدت لطبعك القديم... منذ البارحة وأنت شارد الذهن. ما بك؟ هل رأيت شبح حبيبتك المتعجرفة؟

نهض سعيد، حمل سلاحه، ووقف بجانبه قائلاً بصوت منخفض:

- هناك مسألة تؤرقني، لا أعرف أيهما أصوب؛ أن أُفصح بها لأحد فيشاركني الهم وربما نجد لها حلًا، أم أصمت، فالحديث لن يغير ما حدث.

قال مراد:

- يا لك من رجل لا يكف عن الحيرة... تكتم سرك طويلًا، ثم تفرغه فجأة بكل تفاصيله. هيا، تحدث، لنتقاسم الهم معًا.

سارا جنبًا إلى جنب، قال سعيد بجدية:

- لقد وقع ما كنت تحذر منه أو تخشاه.

توقف مراد. التفت نحو سعيد ليقابله وجهًا لوجه. قال مستفسرًا:

- ما الأمر؟ قل وكفاك غموضًا.

- لقد خُدعنا.

صاح مراد:

- بربك، تكلّم ولا تقطر عليّ الكلام قطرة قطرة!

- اخفض صوتك... ذياب خدعنا جميعًا. كذب علينا، وألف قصة باطلة، استغلنا لتحقيق غاياته، وورطنا في عملية قتل.

عقد مراد حاجبيه وضاقت عيناه واحمر وجهه من الغضب. وبعد أن سرد سعيد له القصة كاملة، فقد مراد صوابه، وهمَّ بالذهاب مباشرة لمواجهة ذياب، لولا أن سعيد أوقفه وأقنعه بالعدول عن ذلك وهو في حالة غضب، حتى لا يرتكب فعلًا يندم عليه. حثه على أن يناقش الأمر أولًا مع بقية المجموعة ومع القائد، لاتخاذ القرار المناسب دون تهور.

بعد أن هدأ، وقف سعيد أمامه، واضعًا يديه على كتفيه، وقال:

- أفضيت إليك بالحقيقة للتشاور. وكنت أفكر في الذهاب إلى قرية الصيوان للتأكد من الأمر بنفسي.

قال مراد، وعيناه تلمعان بعزم:

- ولِمَ العناء؟ سنواجهه بفعلته.

❊ ❊ ❊

الفصل الثالث والعشرون

في الدشمة، انزوى ذياب في زاوية، تتناوبه مشاعر الاضطراب والخجل، يصغي لمحاكمته من قبل الفرقة التي نفذت عملية اغتيال الشيخ مسعود. بعد أن سمع القائد علوش الحقيقة من مراد وسعيد، نقلًا عن الرفيق يحيى، قال بأسى:

- ما حصل خطأ، ولا يمكننا العودة إلى الماضي لتصحيحه.

سأل مراد:

- هل هذا يعني أن تمر المسألة بهذه البساطة؟ هل نصبح أداة لتنفيذ رغبات كل من تسول له نفسه إيذاء الآخرين؟

أجاب علوش:

- لم أقل ذلك. أنا أتحدث عن الماضي. الشيخ مسعود لن يعود إلى الحياة. أما ذياب، فلا مبرر لخطئه... لكن ما الذي يمكن فعله الآن وقد أصبح واحدًا منا؟

قال مراد:

- حذرتكم من قبول هؤلاء بيننا، لكنك بررت وجودهم، وها نحن ندفع الثمن.

قال علوش:

- مثل هذه الأمور لا يمكن التنبؤ بها، ولا يمكننا التحقق من نوايا كل فرد في المقاومة. قد تتكرر الأخطاء، وذياب ليس حالة خاصة.

قال مراد:

- تكرر المبررات بصيغة أخرى! لا بد من عقوبة رادعة كي لا يتكرر الأمر.

علوش:

- ما الذي تريده بالضبط؟ هل تسعى لمعاقبة ذياب؟
- لا أريده عقابًا لشخصه، لكن يؤلمني أن تُدهس العدالة تحت أقدام الطامعين، وأن تتحول الثورة إلى وسيلة للمتسلقين.

قال علي:

- أرى أننا لسنا في موقع إصدار الأحكام، ما دام هناك قيادة تملك القرار.

قال مراد:

- نعم، لقد تمت العملية بعلم القائد أبو مطيع وتوجيهاته، وعلى ذياب الذهاب إليه والاعتراف بكذبته ليحكم عليه بناءً على ذلك، هذا أقل ما يمكننا فعله.

عندها وقف ذياب وقد استعاد رباطة جأشه، وقال:

- سأفعل ما تراه مناسبًا، يا مراد. أنا مستعد لتقبل أي عقوبة، حتى لو

صدرت منك وأنت في أوج غضبك. احكم عليّ بما تشاء، فأنا أقر بخطئي.

مراد:

- لو كان الأمر بيدي، لأطلقت عليك الرصاص.

كان القائد أبو مطيع منشغلًا بفك بندقيته وتنظيف أجزائها حين دخل عليه ذياب، يتبعه الآخرون. وقبل أن يسألهم عن سبب قدومهم مجتمعين، بادرهم بالكلام دون أن يرفع بصره:

- كمحارب... يجب أن تنظف بندقيتك دائمًا كي لا تخذلك. وفي حربنا هذه، علينا الاستمرار بتنظيف كل ما يعوقنا عن المضي فيها.

لم يعلق أحد، لكنهم فهموا مغزى كلامه، وكأنه يسبقهم إلى ما جاؤوا من أجله، رغم يقينهم بعدم علمه بما حدث، إلا إن كانت له عيون نقلت له الخبر.

تكلم ذياب بثقة غير متوقعة:

- أيها القائد، أنا هنا للاعتراف بأنني كذبت بشأن الشيخ مسعود وحرّضت على قتله، لأسباب شخصية، لا كما أخبرتكم.

أجاب القائد، وهو يمسح سبطانة بندقيته، دون أن يرفع رأسه أو تظهر عليه دهشة:

- ومن طلب منك الاعتراف؟

- واجبي يحتم عليّ ذلك، لكن...

قاطعه القائد بهدوء:

- مراد هو من طلب منك الاعتراف. هذا الفتى لم يرق لي منذ قدومه. ألم يكن الشيخ من أعداء الثورة؟

وجد مراد نفسه المعنيّ بهذا السؤال فأجاب:

- بلى، ولكن...

رفع القائد رأسه ونظر إليهم أخيرًا:

- لو لم يدلنا عليه ذياب لكان على قائمتنا، وسنصله لاحقًا. ذياب عجّل بأجله فقط، وعلينا أن نشكره لأنه وفّر علينا الجهد.

قال مراد مبتسمًا بسخرية وغيظ:

- هكذا تُتخذ القرارات إذًا؟! نحن نخسر تأييد الناس بسبب هذه التصرفات، ولسنا مضطرين لجرّهم إلى معاداتنا بسبب خلافات شخصية.

قال القائد ببرود:

- هل تريد إعدام الرفيق ذياب انتقامًا لشيخك؟

استوعب مراد موقف القائد غير الآبه بالخطأ فقال قبل أن ينصرف غاضبًا:

- ليس بشيخي، ولا آسف عليه، ولا أريد إيذاء أحد من رفاقي. لكن... ما جدوى الحديث؟ أنتم تحفرون قبر الثورة بأيديكم.

الفصل الرابع والعشرون

على طريقٍ وعرةٍ حينًا ومنبسطةٍ حينًا آخر، سار عامر، البالغ من العمر ثمانية عشر عامًا، وابن عمه الذي يقاربه في السن، بينما كانت جدتهما المسنّة راكبةً على ظهر حمار قويّ. ظلّ عامر يتذمّر طوال الطريق، لعدم اقتناعه بجدوى هذه الرحلة وما يرافقها من عناء منذ انطلاقهم في الصباح الباكر. حاول إقناعها بالذهاب إلى طبيب توفيرًا للجهد والمال، لكنها تذرّعت بغياب الأطباء، وإن وُجدوا فهم يفتقرون للعلاج الناجع وللقدرة التي يملكها الأولياء الصالحون.

لم يكن أمام عامر سوى الانصياع لطلب جدته، التي تعاني من الروماتيزم وتعتقد أن سحرًا أو عينًا أصابتها، وتصرّ على أن يرافقها إلى منزل فقيه تعتبره من الأولياء، وتثق بقدرته على علاج ركبتيها. وقد أعدّت له الهدايا، وقطعوا نصف المسافة نحو قريته، التي تبعد ثلاث ساعات مشيًا عن بلدتهم.

سار عامر مرغمًا إلى دجّال يعلم أنه يستغل جهل الناس ويكسب رزقه من وراء بساطتهم. جدته لا تقبل منه الخوض في الأمر، أما حفيدها الآخر فكان حائرًا بين منطق عامر وإيمان جدته، فركن إلى الصمت، متمنيًا أن تنتهي هذه المهمة على خير.

حين اقتربوا من مشارف قرية الفقيه، رفعت الجدة بصرها إلى السماء، فرأت غُرابَين يحلقان فوقهم، فقالت:

- انظرا، ها هي الغربان قد وصلت من حيث أرسلها مولانا الفقيه لتنبئه بقدومنا.

انفجر عامر غاضبًا وقال:

- تبًّا للفقيه وللغربان! هذه الغربان تبحث عن طعام، أو تطير لأسباب أخرى، لا علاقة لها بذلك المشعوذ!

صعقت الجدة من كلامه وبدأت تولول وتعنفه:

- يا إلهي! استغفر الله وتُب إليه، وإلا أبلغت الغربانُ سيدَنا الفقيه بما تفوّهت به، وحلّت لعنته علينا!

قال عامر بحدة:

- لن يصيبنا مكروه يا جدتي. ولم أقترف ذنبًا أستحق عليه التوبة. هذا الكاذب لا يعلم الغيب، ولا سلطة له على أي مخلوق.
- أستغفر الله العظيم... سامحنا يا رب، سامحنا يا مولانا! لماذا جلبتك معي أيها العاق، وأنت لا تجلب إلا المشاكل بجهلك!
- تعلمنا في المدرسة يا جدتي، أن هذا شرك، ولا يعلم الغيب إلا الله.
- بئسًا لكم ولهذه المدارس التي توقعكم في الذنب، ولا تقدر الأولياء الصالحين.
- ستتأكدين بنفسك أنه لا يعلم شيئًا وأن الغربان لم تخبره بشيء.

- ليسامحك الله على جهلك.

صمت عامر، وحدث نفسه:

"في الحقيقة، المدرسة التي علمتنا أن نكفر بهذه الخرافات، البعيدة عن الدين، هي نفسها التي علمتنا خرافات أخرى، وجعلتها جزءًا من الدين! ما الفرق بين جدتي البسيطة التي تؤمن بكرامات الأولياء، وبين معلمي الذي يؤمن بمعجزات مماثلة؟ إنني ألتمس العذر لجدتي، لكني لا أجد لمعلمي عذرًا."

وصلوا إلى محيط منزل الفقيه، وربطوا حمارهم إلى جذع شجرة قريبة. مشت الجدة مستندةً على كتفي حفيديها، حتى دخلوا المنزل، الذي بدا واسعًا من الخارج، لكنه ضيقٌ جدًا من الداخل. فالمداميك والفواصل العريضة، والدرج الصخري المغطى بالطين، كانت تشغل حيزًا كبيرًا منه، ربما يزيد على ثلث مساحته. أما السقيفة فكانت تحتل الطابق السفلي المخصص لإيواء الأبقار، ليبقى الجزء المخصص للسكن صغيرًا قياسًا بحجم المنزل كله.

صعدوا درجًا ضيقًا مظلمًا، مرورًا بالسقيفة التي تنبعث منها رائحة مخلفات الأبقار. طاردتهم الرائحة الكريهة، ثم أخذت تخفّ شيئًا فشيئًا كلما ارتقوا إلى الأعلى. ولجوا غرفة في الطابق العلوي، يتسلل إليها الضوء من نافذة صغيرة. كانت أرضيتها مفروشة بحصير خشن، والدخان يملأ الأجواء من

مبخرة موضوعة أمام رجلٍ ذي لحية بيضاء تتخللها شعيرات سوداء، يرتدي جلبابًا أبيض وعمامة بيضاء، وعلى كتفه شال مزخرف. جلس على فرش إسفنجية مغطاة ببطانية، وعن جانبيه متكآن محشوان بالتبن.

جلست الجدة بمساعدة الحفيدين، بينما مدّ الفقيه يده متوقعًا من الشابين تقبيلها، لكن عامر أمسك بيد ابن عمه بقوة، وجذبه ليجلس بجانبه، وسط نظرات استهجان من الجدة. طلبت منه أن يقدّم "لمولانا"، كما تسميه، ما أحضرته: وعاءً معدنيًا من السمن البلدي، وكعكًا ملفوفًا في شال.

بدأت الجدة تسرد معاناتها للفقيه، بنبرةٍ يختلط فيها التذلل بالرجاء، علّه يسخّر ما منحه الله من علم وكرامات لعلاجها. استمع إليها وهو يهزّ رأسه ويتمتم بكلمات غريبة، ظنّت أنها أدعية أو أحجية. حين انتهت من الشكوى قال لها إن عينًا حاسدة أصابتها؛ عين امرأة من عابرات السبيل استضافتها في يوم ما. طمأنها بأن العلاج عنده، فتهلّل وجهها ورفعت يديها بالدعاء له.

ناولها "حرزًا" صغيرًا مغلفًا بقطعة قماش مخيطة بإحكام من جميع جوانبها، ثم أعطاها أوراق نباتات جافة، وطلب منها أن تسحقها وتخلطها بالماء، وتضع الخليط على ركبتيها كل مساء. لقاء ذلك طلب مئتين وخمسين ريالًا. وبإشارة من جدته وضع عامر المبلغ بقوة في يد الفقيه ليعبر بذلك عن غيظه وسخطه.

أضاف الفقيه وهو يلتفت إلى الجدة:

- هناك أشياء أخرى يجب فعلها. عليكِ بذبح الديك الذي يصيح كل صباح، وتوزيع دمه على الأركان الأربعة للمنزل، وترك لحمه على السطح لتأكله الحِداء.

ضحك عامر ساخرًا:

- ليس لدينا ديك في المنزل، وكل الديوك تصيح صباحًا.

حدجه الفقيه بنظرة حادة وقال:

- لم أقل في منزلكم يا أحمق، قصدت ديك قريتكم.

شعر عامر بالإهانة من وصفه بالأحمق، وهم بالرد عليه، لكن نظرة صارمة من جدته جعلته يطأطئ رأسه ويلوذ بالصمت.

تابع الفقيه حديثه للجدة:

- هل لديكم غنمًا؟

قالت الجدة بلهفة: "نعم.. نعم."

قال الفقيه:

- أعلم ذلك، وهناك خروف أبيض بينها، اجلبيه إلى هنا كي أقدمه لهم.

لم يتمالك عامر نفسه فقال:

- لا يخلو بيت في القرى من الغنم والكباش البيضاء.

أضاف وهو يفكر في الخسائر التي ستتكبدها الأسرة عبثًا:

- "ما رأيك أن نفعل العكس، نوزع دم الكبش في أركان المنزل، ونجلب لك الديك لتأكله أنت وأصحابك!

زمجر الفقيه غاضبًا:

- اخرج من هنا. اخرج قبل أن أصب عليك غضبي وأجعلهم يحولونك إلى مسخ.

ثارت الجدة كذلك، وصاحت غاضبة وهي تلوّح بعصاها مهددةً بضرب عامر، وأمرته بالخروج. ثم التفتت نحو الفقيه قائلة برجاء:

- سامحه يا مولانا، فهو لا يعلم. هو فتى طيب، لكنه غبي.

خرج عامر يغلي غضبًا. انتظر بجانب الحمار وهو يشعر بالقلق من مواجهة جدته ثانية، وتعنيفها الذي لن ينتهي. أزعجته فكرة الكبش التي تعني رحلة أخرى إلى قرية الفقيه. وتذكر شيئًا فاته فعاتب نفسه قائلًا: "نسيت أن أذكر حادثة الغربان أمام ذلك الدجال، لأفضحه أمام جدتي"، ثم استدرك: "لكنها ستجد له ألف عذر ولن تقتنع بأي دليل."

انتظر دقائق حتى خرجت جدته مع ابن عمه، وكما توقع، انهالت عليه بالشتائم. اعتذر لها لعلها تتوقف، وعينه على التميمة المعلقة حول عنقها. حدث نفسه: ما الشيء الذي وضعه داخلها ذلك المشعوذ؟ ولماذا يعتقد الناس أن خرقة كهذه ستشفيهم؟ على كل حال هم لا يسألون أنفسهم هذه الأسئلة، ولا يجرؤون على فتح التمائم اعتقادًا منهم أن مفعولها سيبطل.

دفعه الفضول للتفكير في مغافلة جدته وفتحها، لكنه عدل عن الفكرة لعلمه أن الأمر سيحزنها، ثم تساءل: وماذا سأفعل لو وجدت بداخلها طلاسم تافهة؟

طوال طريق العودة ظلت الجدة تقرّع حفيدها وتذكّره بسوء سلوكه مع الفقيه وجهله بكرامات الأولياء الصالحين، بينما كان عامر يتمنى لو أن ابن عمه يشاغلها بحديث آخر. لكن الأخير آثر الصمت حتى وصلوا إلى المنزل، الواقع على طرف القرية، حيث البيوت الحجرية شبه متلاصقة، وسكانها يعرفون كل ما يجري حولهم ويتناقلون الأخبار سريعًا.

في ذلك اليوم، وعند وصولهم واقترابهم من المنزل، رأوا جمعًا من الأهالي، رجالًا ونساءً، في محيطه. لا شك أن أمرًا طارئًا غير عادي هو ما جمعهم هناك. وجد عامر أمه تبكي وتصرخ في جزع، فتصلّبت ساقاه لثوانٍ، ولم تطاوعه قدماه على الحركة، إذ إن صراخ والدته لن يكون إلا لأمر جلل.

دنا منها واحتضنها مستفسراً، بينما هي مستمرة في البكاء، فتزايد قلقه أكثر. اقترب منه عمه محمد، الشقيق الأكبر لوالده، وأخبره بأن مجموعة مسلحة تنتمي إلى المقاومة داهمت المنزل واعتقلت والده واقتادوه إلى جهة مجهولة.

مساء ذلك اليوم خيّم الحزن والكآبة على أسرة الأشهب. لم يخطر ببال أحدهم أن تسوء الأمور بهذا الشكل حين سافروا لقضاء عطلة الدراسة في

وطنهم، آملين أن يقضوها بسعادة.

حضر العم إلى مجلسهم بعد أن هدأت الأم وكفّت عن البكاء. لاحظ ما بهم من خوف وقلق على مصير أخيه. فتحدث إلى الأم وأبنائها، الولدين والبنت، قائلاً:

- أريد أن أكون صريحـًا معكم حتى نتفادى ما هو أسوأ، فأنتم تقيمون في الخارج وتجهلون الكثير مما يحدث هنا في الآونة الأخيرة.

ضاعف كلامه غير المبشِّر خوف الأم، فقالت متسائلة:

- ماذا تريد أن تقول يا محمد؟ هل تلمّح إلى أن زوجي قد يصيبه مكروه؟ لماذا أخذته المقاومة؟ لماذا يقتادون شخصـًا جاء للتو من بلاد الغربة، ليس له علاقة بالحرب وكل ما يجري هنا؟

نظر إليها، وجال ببصره نحو الأبناء فرأى الخوف في أعينهم أيضـًا، فأجاب متردداً:

- في الحقيقة، هناك آخرون تم اعتقالهم في هذه المنطقة من قبل الجبهة، بعضهم بوشايات كاذبة.

أخذ نفسـًا وتوقف قليلاً وهو ينظر إلى الوجوه المتسائلة. أدرك صعوبة موقفه، وتمنى لو أن أحدًا غيره يتولى المهمة عنه ويعفيه من الكلام، لكنه يعلم أنها مسؤوليته هو دون غيره، ولا سبيل له غير ذلك. فاستطرد بارتباك:

- الحقيقة... في مثل هذه الحالات، فإن من يذهب لا يعود... أقصد:

لا يعود حيـًا. هذا ما عليكم أن تفهموه.

صُعق الجميع بتلك العبارة، فصرخت الأم ودخلت في نوبة بكاء، وكذلك ابنتها التي احتضنت أمها باكية هلعة. تماسك الولدان وهرعا لتهدئة الأم والأخت في محاولة لاستيعاب حجم المصيبة. صمت العم محمد ولم يتمكن من استكمال كلامه وسط الفوضى الناشئة.

استمر صمته حتى عاد السكون، وهدأت الأم وابنتها قليلاً، فتابع قائلاً:

- باعتقادي أن الخطر لم ينتهِ هنا.

قالت الأم بخوف وغضب:

- ماذا بعد؟ أي مصيبة يمكن أن تصيبنا أكبر من إمكانية فقدان زوجي؟

قال:

- يجب أن يغادر الولدان غداً صباحـًا إلى صنعاء قبل طلوع الشمس.
- لماذا؟
- على ما يبدو أن هناك من لفّق لأخي تهمة التخابر، لأنه مغترب في بلد هي في حالة عداء سياسي مع الجبهة. ولهذا السبب، فالولدان ليسا بمنأى من أن تطالهما التهمة، وخاصة عامر بحكم سنّه. الولدان ليسا في أمان هنا، وربما يعودون لأخذهما أيضـًا... أقول ربما، ومن باب الحيطة.

عادت الأم إلى البكاء مجدداً وهي تقول:

- ما الذي يجري؟ وما كل هذا الذي يحدث لنا؟ ولماذا نحن ولم نفعل شيئـًا؟

كانت الحقيقة مخيفة وصعبة، والأخطر منها لو تحقق ما يخشى منه العم محمد. لكن عامر وشقيقه تماسكا، وأدركا أنه على حق، وقررا الهروب مع أول خيوط الفجر.

❊ ❊ ❊

الفصل الخامس والعشرون
"قُضِي الأمر."

أنهى القائد المحاكمة بتلك العبارة الجافة، وأمر جنوده بالتنفيذ. محاكمة خاطفة بلا دفاع أو شهود أو أدلة، وكأن الحكم قد صدر قبل انعقادها. فبمجرد اعتقال الشخص، يكون مصيره قد حُسم. هكذا كانت تجري محاكمات القائد أبو مطيع.

تُعقد الجلسات في أي مكان يتواجد فيه ورجاله. هذه المرة كانت في مجلس واسع لأحد الرفاق في إحدى القرى، حيث اجتمع أبو مطيع مع معاونيه وعدد من جنوده. التهمة جاهزة: التخابر والخيانة، استنادًا إلى بلاغ من أحد الأهالي.

خرج ثلاثة مسلحين من المنزل يقتادون رجلًا في الأربعين أو يزيد قليلًا. ملابسه أنيقة، وشعره يلمع من شدة النظافة؛ ملامح تكشف عن مغترب عاد إلى بلدته حديثًا. كان هذا أحمد الأشهب. قُيِّدت يداه بحبل رفيع، والمسلحون يتناوبون بين جره بعنف ودفعه إلى الأمام نحو سيارة جيب متوقفة في الخارج. ظل صامتًا، يحاول مقاومتهم بالامتناع عن السير، ويتحداهم بنظرات عينيه.

"يا لها من ثورة."

تمتم مراد وهو يشيّع السيارة التي غادرت حاملة الأسير وثلاثة من رفاقه.

تدهورت علاقة مراد بالقائد. ورغم حماسه للثورة ومبادئها ووفائه لرفاقه،

فإن ظاهرة الوشاية وتصفية الحسابات كانت تستفزه، ولا يراها تليق بثائر. في ذلك اليوم، دخل المجلس غاضبًا، متجهًا نحو أبو مطيع الجالس مع بعض مرافقيه وأصدقاء مراد الأربعة، بينما كان علوش قد خرج قبل دقائق. اجتاز عتبة الباب وصاح:

- هذه ثالث عملية إعدام تُنفّذ ضد مواطنين بدوافع وشاية غير مؤكدة! إلى أين تريد أن تصل بنا؟"

نظر أبو مطيع إليه مستغربًا من جرأته وقال:

- تجاوزت حدودك كثيرًا يا فتى... اخرج من هنا قبل أن أقطع لسانك الطويل هذا."

اندفع مراد نحوه صارخًا: "تقطع لسان من؟ أيها الـ...

لكن صدره ارتطم بجسم صلب. شعر بألم حاد بين أضلاعه، وبالكاد استطاع التنفس. أحد المسلحين صده بفوهة بندقيته، إصبعه على الزناد، متأهبًا لإفراغ المخزن في صدره إن لزم الأمر.

في اللحظة نفسها، وقف أصدقاء مراد الأربعة، وكذلك المتواجدون في المجلس، بمن فيهم القائد. شُهرت البنادق، وكل طرف صوب سلاحه نحو الآخر. كانت ردة فعل تلقائية قد تتطور في لحظة إلى مجزرة يقتل فيها الرفاق بأيدي رفاقهم. ضغطة زناد واحدة كفيلة بإشعال حرب قصيرة تنتهي معها كل الروابط.

صرخ أبو مطيع غاضبًا:

- اقبضوا عليهم جميعًا وأعدموهم.

رد عبدالله بحدة:

- إذا تحرك أحدكم نحو أحد منّا سأرديه قتيلًا في الحال.

في تلك اللحظة دخل علوش، هالهُ الموقف. لم يصدق ما يراه، فصاح:

- ما الذي يحدث؟ ما كل هذا؟ توقفوا جميعًا أرجوكم."

قال أبو مطيع:

- جلبت لي مجموعة من الخونة، لن ينجوا أحد منهم بفعلته.

رد سعيد:

- لن يموت أحد هنا اليوم سواك.

لوّح مراد بكفه نحو أصدقائه قائلًا:

- توقفوا يا رفاق.. لا يجب أن يتورط أحد منكم، هذه مسألة بيني وبينه، ولن تنتهي إلا بموت أحدنا.

قال علوش وهو يلوح بكلتا يديه محاولًا تهدئة الجميع:

"أرجوكم... أرجوك أيها القائد، الوضع خطير للغاية، فلتأمر رجالك بسحب أسلحتهم، وأنا أضمن رفاقي."

انفجر أبو مطيع صارخًا:

- لن آمر بشيء سوى قتل هؤلاء المتمردين.

قال علي:

- تحسبنا خراف ستحني لك رقابها للذبح! بإمكاني إنهاء حياتك الآن بطلقة واحدة.

قال علوش بغضب ونفاد صبر:

"اصمت... هذا يكفي، أنتم لا تدركون عواقب ما تفعلون.

ثم توجه إلى أبو مطيع بنبرة رجاء:

- سأعالج الأمر بنفسي، امنحني فرصة رجاءً.

أبو مطيع:

- يبدو أنك لم تدرك حقيقة الموقف بعد، هذه خيانة عقوبتها الإعدام.

قال ذياب ساخرًا:

- يبدو أنك أنت من لم يفهم الموقف، تلقي الأوامر وكأن مصيرنا بيدك.

رد علوش:

- يكفى... ظننتكم أعقل من ذلك. أيها القائد، امنحني فرصة حتى الغد، وأعدك أن أنهي الأمر بما يرضيك.

لم يكن أبو مطيع غبيًا، ويدرك خطورة اللحظة واحتمال أن ينفلت الموقف في أية لحظة. لكنه كان يكابر، حرصًا على هيبته أمام رجاله. قال:

- لأجلك، سأتغاضى عن سوء اختيارك للثوار، ويؤجل موعد الإعدام إلى الغد.

قال علوش مشيرًا بكلتا يديه للهدوء:

- سأنسحب الآن مع مجموعتي، وغدًا سيكون لنا كلام.

أمر علوش فرقته بالانسحاب. تراجعوا إلى الخلف بخطوات حذرة، أعينهم مثبتة على القائد ورجاله، وأسلحتهم منخفضة قليلًا تحسبًا لأي غدر إذا ولّوا ظهورهم. وما إن خرجوا من حوش المنزل أسرعوا مبتعدين حتى بلغوا منطقة آمنة.

قضوا ليلتهم عند أحد الجروف. وهناك أقنعهم علوش بضرورة مغادرة المنطقة والانضمام للجبهة في موقع آخر. رفضوا الاقتراح في أول الأمر حتى لا يُظن أنهم فرّوا من عقاب أبي مطيع، لكن علوش أقنعهم أن الابتعاد أفضل من البقاء في مواجهة مفتوحة مع أبو مطيع، فهو قادر على تدبير مكيدة للتخلص منهم غدرًا، كما أن استمرارهم يعني صراعًا داخليًا يفتت الصفوف بدل أن تتوحد ضد العدو.

في الصباح الباكر، عاد علوش إلى مقر إقامة أبي مطيع. بادره بمجرد رؤيته بالقول:

- إياك أن تقترح العفو عن أولئك المتمردين، خصوصًا ذلك الهمجي المدعو مراد، وجوده خطر على المقاومة وسيشق صفنا، ينبغي أن يكون أول من يعدم.

جلس علوش قبالته محاولًا إقناعه بالعقل:

- إعدام أيٍّ منهم في مثل هذه الظروف الصعبة خطر أكبر. علينا معالجة الأمر بطريقة أخرى. إذا أُعدموا، سيظن الرفاق أن الثورة تأكل أبناءها، وسينشق الصف فعلًا. لا أظنك تريد الانتقام الشخصي منهم، وأعدك أن أخلصك منهم تمامًا.

سأله أبو مطيع بنبرة متشككة:

- وكيف ستخلصني من هذه الآفة دون أن تعفو عنهم؟

كان علوش يعرف القائد جيدًا بعد الفترة التي قضاها معه، فاختار أن يحاوره بما يوافق نزعاته. أكّد له أنه يتفق معه تمامًا في خطورة استمرار هؤلاء الشباب المتمردين إلى جانبه، وما يسببونه له من إحراج بين رجاله، لكنه أوضح أن النيل منهم مباشرة أمر صعب طالما هم متكاتفون بهذا الشكل. ورأى أن الأفضل أن يرحلوا، بحيث يحافظ القائد على ماء وجهه أمام أفراده. واقترح أن تُشاع بين رجال المعسكر رواية مفادها أنهم فرّوا سرًا مع قائدهم علوش، ليبدو الأمر وكأنهم هربوا خوفًا من مواجهته، وبذلك تبقى هيبته مصونة، ويُظهرهم بمظهر الضعفاء.

وافق هذا الرأي هوى أبو مطيع، وإن أظهر المكابرة في العلن. كان يدرك أنه في ورطة، وأن تهديده بإعدامهم لا يعني قدرته الفعلية على ذلك في ظل تماسكهم.

غادر علوش المقر متجهًا مباشرة إلى نقطة الالتقاء التي حددها لرفاقه مسبقًا، في منطقة سهلية قريبة من حقول القمح، أسفل جبل ممتد. كانت الساعة تقترب من العاشرة صباحًا. وصل أولًا، ثم بدأ البقية بالتوافد.

بمجرد أن رأى مراد ذياب قال بحدة، وهو يشير إليه بإصبعه:

- وهل سيأتي هذا معنا؟

أجابه علوش بحزم:

- بالطبع سيأتي، إنه واحد منا، وعليك أن تتقبل ذلك. نحن جميعًا في خندق واحد، ولا مجال للخلافات الآن.

صاح مراد بغضب:

- لا مكان له بيننا، هذا الشخص ليس منا.

التفت ذياب نحوه وقال بحدة:

- يا لك من جاحد ناكر للمعروف! لقد خاطرنا بحياتنا من أجلك. كاد ذلك المعتوه أن يقتلنا جميعًا بسببك، وما زلت تتفوه بهذا الهراء؟

قال مراد:

- كان عليك أن تقف في صفّه، فأنتما تتشابهان.

عندها فقد علوش أعصابه فصاح:

- لست أنت من يقرر من يأتي أو يرحل يا مراد! أنت تثير المشاكل باستمرار؛ بالكاد خرجنا من مأزق الأمس حتى تفتعل مأزقًا جديدًا.

ثم خفف نبرته قليلًا وأضاف:

- تذكر ما حدث أمس، ذياب دافع عنك مثل البقية، ولأجلك وجه سلاحه نحو القائد ورجاله، وكاد الخلاف أن يؤدي إلى مجزرة يكون هو أحد ضحاياها. ألا يعني لك هذا شيئًا؟

قال مراد:

- القضية بالنسبة لي ليست شخصية، إنها مسألة مبدأ. هذا الشخص مخادع، جاء ليستغلنا من أجل التخلص من أعدائه.

رد علوش:

- سبق أن أنهينا هذه المسألة.

ضاق ذياب ذرعًا بما يسمعه فصاح: وماذا تسمي قتلك للشاب الذي تحرش بفاطمة، وكنا قد اتفقنا على إطلاق سراحه؟

التفت إليه مراد وهجم عليه بقوة وأسقطه أرضًا وبدأ بلكمه. تدخل الرفاق بسرعة وسحبوا مراد بعيدًا عنه. نهض ذياب، والدم يسيل من أنفه، وهو يصرخ:

- لن تنجو مني يا مراد.

سحب مراد مسدسه وهمَّ بإطلاق النار، لكن علوش أمسك بيده، ثم وجه له لكمة قوية على فكه أسقطته أرضًا.

أصبح الوضع غريبًا ومحبطًا لأصدقاء خاطروا بحياتهم بالأمس دفاعًا عن بعضهم البعض، ثم وجدوا أنفسهم اليوم يتشاجرون فيما بينهم. كان هذا إحساس بقية الرفاق الذين لم يتوقعوا أن يتفاقم الخلاف إلى هذه الدرجة.

قام عبدالله وسعيد بإبعاد ذياب، فيما أبعد علوش وعلي مراد. وبعد أن خفت حدة التوتر تحدث علوش إلى مراد قائلًا:

- انظر إلى ما فعلت! وإلى أين أوصلتنا تصرفاتك. لا يمكن أن نستمر على هذا الحال. عدني ألا يتكرر ما حدث، وأن تتجاوز موضوع ذياب وتتعايش معه.
- كلما رأيته أرى الكذب والخداع على هيئة إنسان.

رد علوش:

- إن كنت لا تستطيع أن ترافق من يكذب، فلا أظنك ستقوى على مرافقتي... أنا أيضًا كذبت عليكم.

قال مراد باستهجان:

- تقول هذا لتخفف من وطأة ما فعله.
- بل أقول الحقيقة. أخفيت عنكم بعض الأمور...

جلس مراد متكئًا على حجر، مدد ساقيه وكأنه ينهار تحت ثقل الحقائق، وقال بنبرة يأس:

- مثل ماذا؟ ما الذي أخفيته عنّا؟

أجاب علوش:

- والدي لم يكن مؤيدًا للثورة كما زعمت. كان مثل بقية المشايخ الذين يرون فيها حركة تخريبية تهدد مصالحهم وتثير الفوضى. وأخفيت عنكم أسبابًا أخرى جعلتني ألتحق بالجبهة.

نظر إليه مراد متفاجئًا، ثم قال بصوت هادئ ومحبط:

- وما هي تلك الأسباب؟
- أردت حماية والدي وعائلتي. وجودي في المقاومة سيجعله في آخر القائمة، وسيغيّر نظرة الناس إلينا، ويجعل والدي في مأمن من الاتهامات، ويمنحني فرصة لإقناعه بتغيير موقفه.
- وهل نجحت؟
- بعد جهد وبمزيد من الوقت... ربما يؤثر وجودي بصف الثورة على موقفه.

حدّق مراد في وجه علوش ثم قال:

- الآن لا تختلف عن ذياب، كلاكما كاذب يستغل رفاقه لتحقيق مآربه الخاصة.

- هذا ما يبدو لك لأنك تحكم من منظور مثالي لا يمنح الضرورات أي اعتبار.

نهض مراد، وأدار ظهره لعلوش، مشى خطوتين واضعًا يديه في جيبيه، وقال وهو ينظر إلى الأفق:

- احترمتك كثيرًا في الماضي باعتبارك صادقًا ونزيهًا، وقد أحببتك كأخي.

ثم التفت نحو علوش وأكمل:

- أما الآن... فأحترمك أكثر أيها الكاذب.
- أتسخر مني أم تجاملني؟
- لا هذا ولا ذاك. لو كنت أجامل لتملقت القائد أبو مطيع. أنت لست مثل ذياب؛ ما فعلتماه مختلفان. هل تسببت في مقتل أحد من أبناء قريتك؟
- لا.
- ذياب فعل. أما أنت، فقد كنت سببًا في حماية آخرين. وهل خلقت أعداء للمقاومة؟
- لا.
- لكن ذياب فعل، بينما أنت كسبت تأييد أسرتك لها.

- لكن دوافعنا شخصية.
- السبب مختلف، والنتيجة مختلفة. هناك فارق كبير.
- ومع ذلك، أرجوك أن تتعايش معه كما تعايشت مع أبو مطيع.

عند سماع اسم أبو مطيع، بصق مراد على الأرض، ثم جلس أمام علوش نظر في عينيه وقال:

- لم أتعايش مع أبو مطيع. لولا خلافي معه لما كنا هنا.
- إذن عدني ألا تثير المشاكل مع ذياب. تذكر أن بقاءه معنا بعد أن حقق هدفه دليل على إيمانه بقضيتنا. لو كان هدفه شخصيًا بحتًا لعاد إلى قريته.

تنهد مراد بعمق، ووضع رأسه بين كفيه، ثم قال بضيق:

- لك مني ذلك.

على الجانب الآخر دار حوار بدأه عبدالله مخاطبًا ذياب:

- تعلم جيدًا أنك قد اقترفت خطًا كبيرًا يا ذياب، ويجدر بك أن تعذر مراد رغم نزقه."

رد ذياب بحدة:

- عليه هو أن يعرف حدوده. يتصرف وكأنه وصي على الجميع ويريد ضبط سلوكهم. ليس بمقدوره تغيير الناس كما يشاء.

- صحيح هو لا يستطيع تغييرك، لكن أنت تستطيع.

نظر ذياب إلى من حوله وقال لهم:

- لا أعلم إن كنتم تثقون بكلامي أم لا... لكن... صدقوني لقد أدركت خطأي وأشعر بسوء ما فعلت، وأريد المضي معكم في الطريق نفسه، أنا مؤمن بكم حقًا وبما تفعلونه.

قال ذلك وهو ينظر إليهم نظرة رجاء، ويبحث في وجوههم عن تصديق.

قال عبدالله:

- الأيام والأفعال كفيلة بإثبات النوايا.

❊ ❊ ❊

الفصل السادس والعشرون

في اليوم الثالث، اجتمع الرفاق الستة مجددًا بعد يومين قضوها مع عائلاتهم استعدادًا للرحيل. حملوا أسلحتهم وأمتعتهم، واتجهوا شرقًا من موقعهم الحالي، يقطعون مسافات على سفوح الجبال. عند الظهيرة، توقفوا للاستراحة وتناول الطعام في سهل فسيح أسفل جبال متجاورة.

كان الجوّ صافيـًا، تتناثر فيه غيوم قليلة أخذت في التزايد مع استئنافهم المسير. فجأة، تبدّل الطقس إلى رياح عاصفة محمّلة بقطرات مطر خفيفة، سرعان ما أعقبتها زخات غزيرة. هرع الرفاق يبحثون عن مأوى، يحمون أسلحتهم باحتضانها تحت المعاطف والشيلان. عثروا على جرف صخري، فالتجأوا إليه حتى هدأ المطر وتوقف تمامًا. وبعد دقائق من استئناف المسير، عادت الشمس تبعث دفئها، مبددة قطع الغيم في السماء.

هبطوا إلى طريق ترابي تسلكه المركبات أحيانًا، وساروا فيه على أمل أن تمر سيارة تقلّهم إلى وجهتهم. لم يطل الانتظار حتى ظهر جرّار زراعي يجر خلفه عربة فارغة. توقف السائق حين رآهم، وبعد تبادل التحية دعاهم للركوب. صعد بعضهم إلى الصفائح المعدنية فوق الإطارات بجانب السائق، فيما جلس البقية على أرضية العربة.

لم يكن الجرار مريحًا؛ فحديده الصلب والطريق المليء بالمطبات جعلاه يصعد ويهبط بعنف، لكنهم وجدوه أفضل من متابعة السير على الأقدام.

وبعد لحظات صمت، بدأوا يتبادلون الحديث، ودون ترتيب، وجد مراد نفسه يكلم ذياب الذي كان ما يزال غاضبًا منه.

– أنا أيضًا مستاء منك، لكن ما دمنا نحارب معًا فلا مفر من التصالح.

رد ذياب:

– كان عليك أن تفهم ذلك من قبل، لكنك ديكتاتور... أليست هذه الكلمة التي تصف بها المتسلطين؟

– لا رغبة لي في نبش الماضي، وإلا لأطلقت عليك وصفًا يليق بك أيضًا.

عندها تدخّل الرفاق لوقف الحوار قبل أن يتصاعد الخلاف مجددًا.

قال مراد:

– من جانبي، أعتذر لذياب عمّا بدر مني. أردت فقط تلطيف الأجواء بيننا، فلننسَ ما جرى. في لحظة غضب نسيت موقفك الشجاع.

ابتسم ذياب وهز رأسه علامة على الرضا والقبول.

قبل أن يعلن سائق الجرار وصوله إلى وجهته، صادف مرور سيارة بمحاذاتهم. أشاروا إلى سائقها ملوحين بأيديهم، وأطلق سائق الجرار بوقه لتنبيهه. ترجلوا من الجرار شاكرين سائقه، ثم ركبوا السيارة، ليجدوا من سائقها ترحيبًا لا يقل دفئًا عن سابقه. ومع ذلك، راودهم التساؤل إن كان هذا

الترحيب الدائم نابعًا من الاحترام الحقيقي للمقاومة، أم أن للخوف دورًا فيه.

على متن السيارة، شعروا وكأنهم على أسرّة وثيره، بعد ما لاقوه من مشقة في عربة الجرار. استمرت الرحلة وهم يتجاذبون أطراف الحديث مع السائق، حتى وصلوا إلى نقطة افتراق قريبة من وجهتهم، فيما واصل السائق طريقه إلى مقصده.

قطعوا مسافة أخرى سيرًا على الأقدام حتى بلغوا قرية تقوم على أرض منبسطة، على غير ما اعتادوه في القرى عادة. هناك سألوا عن منزل صادق علوان، وبعد أن تعرّف إلى علوش عانقه، ورحّب به وبزملائه، واستقبلهم في مجلسه المكتظ برجال أغلبهم من الرفاق. أجلسهم بالقرب منه بعدما أخلَى لهم الحاضرون أمكنة في مقدمة المجلس.

شخصية صادق البشوشة، وطريقة استقباله لهم واهتمامه بهم، أشعرتهم بالارتياح، وأسرتهم بساطته وهيبته وقوة شخصيته، وتلك صفات قائد يفتقر إليها أبو مطيع.

بعد وقت قضوه في أحاديث متفرقة، سألهم صادق علوان عن سبب قدومهم. ودون الدخول في التفاصيل، أخبره علوش بأنهم على غير وفاق مع أبو مطيع، وأنهم بلغوا معه طريقًا مسدودًا، ما دفعهم لمغادرة معسكره. أومأ صادق برأسه مؤكدًا رأيه في أبي مطيع، وقال:

- أبو مطيع رجل صعب. كنا على خلاف دائم، ولم أستطع احتمال

تصرفاته حتى أصبح استمرارنا معًا في المكان نفسه أمرًا مستحيلًا.

تنفّس علوش الصعداء، إذ أعفاه صادق بما قاله من الحرج الذي كان يخشى الوقوع فيه، أو الاضطرار للمراوغة إن سئل عن سبب الخلاف، فهو لا يريد أن يظهر رفاقه أمام القائد الجديد بمظهر المتمرّدين.

في معسكرهم الجديد، شعروا بفارق واضح، وكأنهم انتقلوا من حياة إلى أخرى. تحسّن المزاج العام تحت إشراف القائد صادق علوان، الذي أعاد إلى مراد ثقته بالثورة، وأزال الشكوك التي كانت تراوده كلما أُوكلت إليهم مهمة. أدركوا أن شخصية أبي مطيع كانت ضمن استثناءات قليلة، وهذه الحقيقة أعادت إليهم الاطمئنان.

تضاريس المعسكر أيضًا مختلفة عن سابقه؛ إذ يقع على قمة جبل شاهق تتشكل من كتل صخرية رمادية، تحيط بأسفله أودية وقليل من القرى وبعض الجبال. ورغم بُعده عن ديارهم، وجدوا فيه راحة أكبر مما وجدوه في المعسكر السابق.

أثناء ذلك، وبعد أيام من استقرارهم هناك، اجتمع القائد صادق بقادة المجموعات الصغيرة، وأخبرهم بحاجته إلى قوة لا تقل عن أربعين مقاتلًا، ليتوجه بهم إلى موقع آخر كان قد تعرّض لهجوم من قوات الجيش والميليشيات المتعاونة معه، وهو هجوم انتهى بسقوط الموقع. وأوضح أن الثوار يستعدون لاقتحامه واستعادته، الأمر الذي يستلزم تجهيز قوة كبيرة

تضم المقاتلين الذين انسحبوا منه سابقًا، إلى جانب تعزيزات من بقية الجبهات التي جرى التنسيق معها للعملية. وأشار إلى أن المعسكر المستهدف يقع على مسافة غير بعيدة من مواقع أخرى تابعة للجبهة، وقد نُصبت فيها المدفعية لإسناد المقتحمين بالقصف أثناء العملية. لكنه حذّر في الوقت نفسه من تفوّق العدو عليهم في الكم والكيف من حيث الأسلحة.

وعقب استماعهم لهذه التفاصيل استعد علوش وأفراده للمشاركة في المهمة. وبعد أيام من التحضيرات، تحرك رتل من العربات ليلًا محملًا بالسلاح والمقاتلين، وقد تجمّع من معسكرات عدة. انطلق عبر التلال والمنخفضات، ثم تقدّم بحذر وأطفأ أضواءه حين اقترب من الهدف.

وحتى لا تكشفهم أصوات العربات توقفوا على بعد مسافة مناسبة خلف سلسلة من الروابي المنخفضة في منطقة كثيفة الأشجار. ترجّل مسلحون تجاوز عددهم ثلاثمئة مقاوم، حاملين الأسلحة والذخائر، بينما أخفى السائقون عرباتهم تحت الأشجار ثم انضموا إلى رفاقهم.

كُلّفت مجموعة صغيرة بحراسة العربات، بينما واصل الثوار تقدّمهم بهدوء نحو الموقع المستهدف. تقدّم الكشّافة وطوّقوا المكان من الجهات كافة، ثم بدأ التسلل وفق الخطة التي نصّت على بدء الزحف قبل الفجر بنصف ساعة. وبمجرّد إعطاء إشارة الهجوم، دوّت المدافع، وردّت قوات الجيش على الفور بقصف مماثل، مما أتاح للقوة المتسللة التقدّم بسرعة أكبر مع انقشاع الظلام وانكشاف الرؤية.

في الجهة الجنوبية، كان علوش وسعيد وعلي قد قطعوا أكثر من نصف المسافة نحو القمة، حين دوّى انفجار أول لغم أرضي، فطرح أحد الثوار أرضًا، وبُترت ساقه لتسقط على مقربة منه. كشف الانفجار موقع المتسللين، فانهالت عليهم زخات من الرشاشات الثقيلة، أردت عددًا منهم قتلى. طلقة عابرة مرت بجانب أذن علي واستقرت في رأس أحد الرفاق القادمين من الخلف.

اشتد القصف حتى حجب الغبار والدخان الرؤية. من جهتها كثّفت مدفعية المقاومة قصفها، فأصابت بعض القذائف أهدافها، وألحقت خسائر في قوات الطرف الآخر التي ركزت نيرانها على إيقاف الزحف، مطلقة وابلًا من رصاص البنادق والرشاشات حصد المزيد من الأرواح. ولولا أسلوب التسلل الزاحف، مقرونًا بالدعم المدفعي الكثيف، لكان المتسللون قد أُبيدوا عن بكرة أبيهم. لكن التقدّم ازداد صعوبة كلما اقتربوا من القمة لكثرة الألغام المزروعة في محيط الجبل.

في الجهة الشرقية، كان مراد وذياب وعبدالله في الخطوط الأمامية الأقرب إلى القمة. وبينما كانت أصوات الألغام تختلط بدوي المدافع والرشاشات، انفجر لغم تحت أقدام عبدالله، فسقط قتيلًا. صرخ ذياب باسمه واندفع نحوه غير عابئ بالرصاص، لكنه وجده جثة هامدة. جلس يبكيه لحظات، ثم لحق به مراد وقد رأى المشهد من بعيد. تبادلا نظرة الحزن، ثم تابعا الهجوم مع بقية الرفاق حتى بلغوا القمة بأعداد كبيرة.

على القمة، دارت معركة أكثر شراسة. تبادل الطرفان إطلاق النار من مسافات قريبة، وانتهت المعركة باستسلام من تبقى من عناصر القوات الحكومية وأسرهم، بعد أن قُتل العشرات من كلا الجانبين بينهم القائد صادق.

بعد أن سكنت أصوات الأسلحة بدأ أفراد المقاومة بلم شتاتهم وجمع جثث القتلى من سفح الجبل إلى قمته، ومعالجة الجرحى، واقتياد الأسرى، ودفن القتلى من الجانب الآخر. ورغم النصر واستعادة الموقع فقد خيّم الحزن على المكان، فالخسائر كانت كبيرة، والكثير من رفاقهم رحلوا في يوم واحد. كان الحزن أكبر على رحيل القائد صادق، لما تميز به من سمات جعلته محبوبًا ومحترمًا من الجميع. كما أن مقتل عبدالله فطر قلوبهم وهم يفكرون في الألم والصدمة التي ستصيب والديه حين يصلهم نبأ مقتله.

❊ ❊ ❊

الفصل السابع والعشرون

على متن سيارة جيب مغطاة بطربال، نُقل جثمان عبدالله برفقة أصدقائه. توقفت السيارة أمام منزل والده، فحملوه ووضعوه عند المدخل، وحرصوا على تغطيته لإخفاء آثار الإصابات.

انحنى الأب باكيًا، محاولًا كشف وجه ابنه، وسط محاولات عبدالرحمن لثنيه. لكنه رضخ لرغبة أبيه. خرَّ الأب باكيًا على جسد ابنه المتوفي، وأطلق صرخة مدوية أضعفت تماسك عبدالرحمن ليرتمي بجوار والده للحظات. ثم ما لبث أن تماسك، واحتضن أبيه، ورفعه ليستقيما واقفين.

ألقيا نظرة وداع أخيرة على الجسد الدامي، ثم التفتا نحو أم عبدالله، التي كانت واقفة في حالة ذهول. لم تحاول الاقتراب وسط الفوضى التي عمت المكان، فقد جمدتها الصدمة، ومنعتها من التعبير عن فجيعتها. اقترب منها زوجها وابنها، مدركين ما اعتراها، فتحركت ببطء نحو الجثمان، وأمالت رأسها بعطف، تنظر إلى فلذة كبدها كما تنظر أم إلى طفلها النائم في مهده. تذكرت كيف أن حرصهما واهتمامهما به لم يجنباه الموت، ولامت نفسها لأنها سمحت له بالابتعاد عن حضنها، حتى بعد أن صار رجلًا، ولأنهما منحاه حرية اتخاذ قراره. هكذا حدَّثت نفسها بينما كانت الدموع تتجمع في مآقيها وصرخة حبيسة ندت عنها هزّت قلوب المحيطين ودفعتهم للبكاء.

❊ ❊ ❊

الفصل الثامن والعشرون

بعد مقتل القائد صادق علوان، تولّى علوش القيادة، وأثبت جدارته في المعارك التالية حتى خمدت المواجهات على معظم الجبهات، وساد هدوء نسبي بدا وكأنه يسبق عاصفة. الهزائم المتتالية للقوات الحكومية دفعتها إلى البحث عن استراتيجية توقف الزحف أولًا، ثم تمكّنها من استعادة المناطق المفقودة بالهجوم. في المقابل، لم تجرؤ المقاومة على التقدم أكثر بإمكانات محدودة، فاختارت استدراج الخصم والقضاء عليه في كمائن على أراضيهم.

مع نهاية ١٩٨١، بدأ الحشد الحكومي بالتحرك جنوبًا وشرقًا في حملة واسعة وضخمة، معلنًا حربًا شاملة تهدف إلى استرداد مناطق الجبهة الوطنية وإخماد التمرد. وقبل ذلك، وبينما كانت الحكومة تتصدع أمام المدّ الثوري، دخل التيار الإسلامي على خط الصراع إلى جانب الجيش. فبدأ الموالون للسلطة العمل على محورين: تشكيل مجاميع شعبية مسلحة من أبناء المناطق الوسطى لخوض حرب عصابات، مستفيدين من معرفتهم الجغرافية والاجتماعية. ومن ناحية ثانية نشروا فِرقًا من المتدينين بين القرويين للتحذير من "المخربين الشيوعيين" و"الكفار أعداء الدين" بحسب وصفهم، في محاولة لكبح التأييد الشعبي للثوار.

مع مطلع ١٩٨٢، تتابعت أخبار الهزائم في صفوف المقاومة، وسقطت مواقعهم تباعًا بيد الجيش المدعوم بالقبائل والميليشيات الإسلامية.

تراجعت قوات الجبهة بعد أن كانت الكفة تميل لصالحها، لكن ما أثار الشكوك كان استسلام بعض المواقع بلا قتال، ما غذّى الشائعات عن تسويات سرية بين قيادات الشطرين، دون علم القيادات الميدانية والأفراد.

سقوط أي معسكر كان يفتح الطريق لسقوط آخر، حتى تقلّصت مناطق سيطرة الثوار تدريجيًا. ومع ذلك، توافد مقاتلون فارّون من معسكراتهم إلى موقع علوش لتعزيز جبهته، أملاً في معارك تعيد لهم التوازن. ورغم تمسّك كثيرين بأمل النصر، بدأ آخرون يدركون حقيقة الوضع التي لا يريد البقية الاعتراف بها.

❊ ❊ ❊

الفصل التاسع والعشرون

في الموقع الذي يقوده أبو مطيع، وصل اثنان من أفراد المقاومة الوطنية قادمين من أحد المعسكرات القريبة من مواقع الجيش، يحملان رسالة مغلّفة من قائدهما. جاء في الرسالة:

"قوات الجيش تتقدم، ومناطق سيطرتنا تتساقط تباعًا تحت وطأة الهجوم، بعدما شكّلت الميليشيات المحلية تحالفًا مع الجيش، فأمدّتها الحكومة بالأسلحة التي نفتقر إليها. هذا أضعف جبهتنا، وزادته الخيانات سوءًا، إذ سلّم بعض القادة أنفسهم للجيش، فيما انقطع الدعم من الجنوب. وأصبحت المقاومة في موقف حرج. وعليه، وجب إعلامكم لاتخاذ القرار المناسب: إما الصمود إذا لاحت الفرصة لتغيير الوضع، أو النجاة بالأفراد إذا اتضح أن فرص النصر معدومة."

قرأ أبو مطيع الرسالة بلا أثر للدهشة؛ فالمشهد العسكري بات واضحًا له من خلال مجريات المعارك الأخيرة. طواها وأخفاها في جيبه، كعادته في كتمان ما يدور في خلده، مكتفيًا بإصدار أوامره عند اقتراب ساعة التنفيذ.

في اليوم التالي شرع في تنفيذ خطته. أخذ معه عددًا من رجاله على عربات مزودة برشاشات ثابتة، وزودهم بأسلحة متنوعة كالرشاشات والقنابل وقاذفات (آر بي جي)، إضافة إلى صناديق ذخيرة وفيرة وأسلحتهم

الشخصية. أمر بقية الأفراد بالبقاء في حالة استنفار، مما أوحى لهم أنه ذاهب لتنفيذ عملية نوعية وخطيرة.

لكن بعد يومين فقط، انتشرت الأنباء: أبو مطيع ومن معه سلّموا أنفسهم- ومعهم الأسلحة والأطقم العسكرية- إلى أحد معسكرات الجيش. أما من تبقى في المعسكر، فقد تفرّقوا عائدين إلى قراهم استعدادًا للدفاع عنها.

وسرعان ما جاء الإنذار إلى القرى المحيطة: قوات الجيش والميليشيات باتت على مشارف المنطقة، والمعارك القادمة ستكون طاحنة، مع قصف بالمدافع والرشاشات وربما الطائرات. أنذر الأهالي بإخلاء منازلهم فورًا والتوجه إلى أماكن أكثر أمنًا.

استعد الناس ليلًا، ومع الفجر غادروا بيوتهم حاملين ما استطاعوا من مؤن ومتاع على ظهور الحمير. واصطحبوا مواشيهم نحو الأودية، حيث يمكن للجروف الصخرية أن تقيهم من نيران القصف المحتمل.

❊ ❊ ❊

الفصل الثلاثون

احتشدت قوات الجيش حول الموقع وطوقته من جميع الجهات، بعد أن سيطرت على المواقع المحيطة.

دامت المعارك ثلاثة أيام، حاولت خلالها قوات الجيش التقدّم بكل ثقلها نحو الموقع الجبلي، في مقابل استبسال أفراد المقاومة وصدّهم للهجوم بكل ما أتيح لهم من قوة، حتى أُنهكت جبهتهم ونفدت معظم الذخائر والمؤن الغذائية، وبدا أن الصمود لم يعد ممكنًا.

وفي ليلة مظلمة، بعد منتصف الليل، تجمع أفراد من الموقع حول نار مشتعلة. بات سقوط المعسكر مؤكدًا، نظرًا للفارق بين حجم القوتين، ولسقوط المواقع المحيطة التي كانوا يُعَوّلون عليها في إسنادهم.

تحدث ذياب إلى رفاقه وهو متكئ على بندقيته، كأنه يحدّث نفسه بصوت عالٍ:

- على الأرجح سنموت الليلة أو غدًا صباحًا، فما أفضل فعل يمكن أن يقوم به إنسان قبل موته؟

أجابه أحد الرفاق، المنضمين من المناطق التي سقطت:

- أفضل ما يمكن فعله هو الموت بطريقة مشرفة.

وبينما هم يتناقشون حول أفضل طريقة للموت، كان علوش شارد الذهن، ينهض من مكانه بين الحين والآخر، يتقدّم نحو القمة ليلقي نظرة، ثم يعود.

ظل على حاله حتى الفجر، وبعد تفكير عميق خطرت له فكرة، فنهض وخاطب رفاقه بلهجة هادئة:

- لن نموت... ولن نستسلم.

قال ذياب ساخرًا:

- حقًا! وهل سيرسل الله عليهم طيرًا أبابيل!

نظر إليه علوش وقال:

- قد يكون ذلك حلًا... لكن هناك حلٌ ممكن: الهروب.

تدخّل علي قائلًا:

- لو كان الهروب متاحًا، لما بقينا هنا حتى الآن. كيف نفعل ذلك ونحن محاصرون؟

طلب علوش من الجميع الاقتراب والإصغاء، فتجمعوا حوله، وراح يشرح خطته:

"القوات تحاصرنا بالفعل من كل الجهات، ما عدا الهاوية في الجهة الغربية. هي مساحة صغيرة، لكنها سحيقة ومنحدرة بشدة، ولذلك اكتفوا بمراقبتها من الأعلى دون أن تتمركز أي قوة أسفلها، لاعتقادهم أن خطورتها تمنع أي محاولة عبور. نحن نعرف هذا المكان أفضل منهم؛ هناك مجرى سيل عميق، عبارة عن شق يمر بين الكتل الصخرية الضخمة، ممتد من القمة حتى القاعدة، وهو غير

مرئي من بعيد. جانبا الشق، اللذان يشكلان جزءًا من حافة الهاوية، يوهمان الناظر من بعيد بأنها كتلة واحدة متصلة. باختصار: لا يعلمون بوجود هذا الممر، وسنجعله طريقنا للخلاص.

سنبدأ التسلل فورًا على شكل دفعات، كل دفعة من ستة أفراد، وبين كل دفعة وأخرى خمس دقائق. لن نحمل معنا سوى السلاح الشخصي، وفي حال اكتشاف أي دفعة، على أفرادها إطلاق النار لتنبيه الآخرين بالتوقف وعدم اللحاق بهم."

تبادل الرفاق النظرات وشعروا بأن بصيص أمل يلوح لهم بعد أن كانوا قد فقدوه تمامًا. لكن فجأة دوّى انفجار قذيفة هاون هزّ المكان، تلتها أخرى أودت بحياة عدد منهم. وسط الغبار والحصى المتناثر والدخان المتصاعد، صرخ علوش:

- بسرعة نفذوا ما قلته لكم، فليحمل كل واحد منـ...

انقطع صوته مع انفجار قذيفة ثالثة، وأدركوا أن اقتحام موقعهم قد بدأ وأن قائدهم قد قُتل. التقطوا بنادقهم وهرعوا إلى حواف الموقع لتطويقه من الأعلى، وشرعوا يطلقون النار على الحشود الزاحفة لإعاقة تقدّمها وإتاحة فرصة الهرب.

بينما كان قسم منهم يطلقون النار، بدأت مجموعات بالانسحاب بشكل عشوائي، ودون فارق زمني كما كانت عليه الخطة. توافد الثوار على الشق

الصخري وسط أصوات القذائف وانفجار الألغام بالقرب من القمة لإعاقة أفراد الجيش. خلال دقائق تمكن من تبقى من أفراد المقاومة من الابتعاد مسافة ليست بمنأى عن ملاحقة قوات الحكومة واقتفاء أثرهم. توقف دوي الانفجارات ووصل أفراد الجيش إلى القمة وفاجأهم خلو المعسكر من الثوار. بحثوا بحذر في أرجائه إلى أن اكتشفوا المكان الذي تسللوا منه. أمطروا ما تبقى من الهاربين برشقات كثيفة من الرصاص، فأردوا عددًا منهم، فيما واصل الباقون الفرار بحركات لولبية لتفادي الطلقات، مستعينين بالصخور وجذوع الأشجار للاحتماء والرد بإطلاق النار.

استمر تبادل النيران وسماع أزيز الرصاص على الصخور الصلبة وتطايرها إلى شظايا حتى بعد أن بلغوا أسفل الجبل وتفرقوا في جهات مختلفة. واصل العسكر مطاردتهم وتمكنوا من قتل عدد آخر وأسر بعضهم، بينما تمكن قلة منهم من النجاة عبر الممرات الوعرة والظلال الكثيفة للأشجار.

❊ ❊ ❊

الفصل الواحد والثلاثون

بعد شروق الشمس سكنت أصوات البنادق وتوقفت المطاردة وتشتت الناجون هائمين على وجوههم لا يعلمون إلى أين يمضون، تاركين خلفهم عددًا كبيرًا من رفاقهم بين قتيل وجريح.

أثناء المطاردة أصيب مراد بشظية طائشة في ذراعه، لكنه واصل السير وهو ينزف، برفقة علي. وبعد أن قطعا مسافة طويلة توقفا ليستريحا عند جرف أحد الأودية جنوبًا.

قال مراد:

- ماذا سنفعل الآن؟

رد علي:

- دعني أربط جرحك، ثم سنواصل السير حتى نجد وسيلة توصلنا إلى عدن.

وبينما علي يربط الجرح سأل رفيقه:

- بماذا تشعر؟

رد مراد متعجبًا:

- أشعر بالألم! ماذا الذي يمكن أن أشعر به غير ذلك؟
- أعني، هل تشعر بأن عظم ذراعك سليم؟

- أظنه بخير.

تابعا المسير عبر وادٍ طويل، وقد نال منهما التعب والجوع والعطش. حتى وصلا إلى منطقة سهلية خضراء، تكسوها الحشائش وتتخللها أشجار وارفة، وفي وسطها جدول ماء رقراق ينساب بين صخور ملساء بيضاء، تتجمع مياهه في أحواض صغيرة متفرقة.

وضعا سلاحيهما جانبًا وشربا ثم استلقيا بالقرب من الماء الجاري، تحت ظلال الأشجار.

النسيم العليل وظلال الأشجار ومنظر الطبيعة الخلاب، كل ذلك بعث في نفسيهما الارتياح، وأنساهما للحظات مشقة الهروب. تمنيا لو أن الظروف تسمح لقضاء كل الوقت هناك. بدت لهم تلك البقعة جنة صغيرة. لكن خلف ذلك الصفاء كانت أطياف المعركة الأخيرة تلوح في ذاكرتيهما: المنحدر الصخري الملطخ بالدم، الرفاق الذين سقطوا، صرخاتهم وهي تتلاشى وسط دوي الرصاص، والشظايا التي مزقت الأجساد.

بالنسبة لهما، كانت تلك المعركة نهاية مسيرة نضال طويل، هزيمة ثقيلة قضت على آمالهم بالتغيير. وبرغم ذلك، بدا أنهما يتعاملان مع الخسارة بأقل قدر من الانكسار، ربما لأن الصدمة لم تكتمل بعد، وربما لأن الكوابيس ستتولى مهمتها لاحقًا.

- نحتاج إلى طعام. قال علي متنهّدًا.

ابتسم مراد وردد بصوت متهكم أبيات محمود درويش:

"لا تيأسوا مازال في موقدكم لهب

وقهوة، وشعلة من نار

وحزمة من الحطب"

ثم أضاف: "رغم الجوع، لكن لن أبرح مكاني هذا."

قال علي:

- كنا نتسابق لصعود الجبال ونحن في حال أسوأ من هذا.
- لم يمر عليّ يوم أسوأ من هذا، خسرنا الحرب، فقدنا أحبتنا، والأمل... لم يبق لنا شيء نعيش من أجله.
- بقي الوطن.
- حتى هذا فقدناه!

ابتسم عليّ، وفي محاولة لبث الأمل في نفس مراد قال:

- هيا، انهض لنبحث عن صيد نأكله. لا تنتظر أن تهز إليك بجذع النخلة فتساقط عليك رطبًا جنيا.
- تعرف أن ذراعي مصابة، ولا أستطيع استخدام البندقية."

حك عليّ رأسه، فاته ذلك بالفعل. التقط بندقيته وذهب يتجول في المكان، يجول ببصره ويتسلل بهدوء بين أشجار تعج بعصافير مختلفة الأنواع

والألوان. فكر في اصطيادها، لكن حجمها الصغير لم يشجعه. وبينما هو يبحث عن طائر كبير، أو أرنب أو وبر، كان مراد مسترخيًا ويشعر بكسل لذيذ، وكأنه ممتن للجرح. لم يكن لينغص هذه السعادة شيء، حتى الأفكار السوداء وذكريات اليوم المريرة لم تجد طريقها إليه في تلك اللحظة الهادئة التي لم يبددها سوى صوت رصاصة قادمة من جهة علي.

كان مراد مستلقيًا على ظهره، مغمض العينين، متوسدًا ذراعه السليمة، حين تناهى إلى سمعه صوت حركة قريبة. فتح عينيه فإذا به يرى رجلاً يقف عند رأسه، بساقين عاريتين يعلوهما إزار يصل إلى الركبتين. هبّ محاولًا سحب بندقيته بيدٍ واحدة، لكن قدم الرجل كانت قد ثبتتها إلى الأرض. انحنى الغريب، التقط السلاح وصوّبه إلى مراد قائلًا بحدة:

- أنت من المخربين... ما الذي أتى بك إلى هنا؟ أنتم قتلة لا تستحقون الحياة.
- إذا كنا قتلة فأنت مقتول الآن! ضع البندقية أرضًا قبل أن أضع طلقة في رأسك.

جاء الصوت من خلف الرجل، وكان علي قد وصل في اللحظة الحاسمة، ممسكًا بيده اليسرى طائر حجل كبير، وضعه أرضًا، ثم صوب بندقيته مباشرة إلى رأس الغريب.

تجمّد الرجل، ثم وضع بندقية مراد على الأرض ببطء، واستدار نحو علي رافعًا يديه مستسلمًا. قيّده علي ومراد بشاله الممزق إلى قسمين، ثم انشغل

علي بجمع الحطب، فيما شرع مراد في نتف ريش الطائر بصعوبة.
بعد أن انتهيا من الشواء، أكلا بنهم، وكانا بين الحين والآخر يضعان لقمة في فم الرجل. قال مراد:

- كما ترى، نحن أحوج منك للطعام، لكن لا يليق أن نأكل وأنت تشاهد. كل، ولا تخف، لن نقتلك... ولكن أخبرني: لو فعلنا، من سيبحث عنك قبل الغروب؟

أجاب الرجل:

- أولادي وزوجتي، فهذا المكان يخصنا.

بعد أن فرغوا من الطعام، قال مراد لرفيقه:

- هيا بنا قبل أن يأتي شخص آخر يسبب لنا المتاعب.
- ألا نفك وثاقه؟
- لو فعلنا سيلحق بنا... لا خوف عليه، وحين يجدونه نكون قد ابتعدنا بما يكفي."

سارا بمحاذاة جدول الماء. قال مراد بنبرة ساخرة:

- هل كنت بحاجة لإطلاق كل ذلك الكم من الرصاص لتصطاد لنا حجلًا واحدًا؟ ظننتك قد ظفرت بما يكفينا لبقية الطريق.
- أتشكك في مهارتي في التصويب؟ كانت الطيور تطير قبل أن أطلق عليها، فأضطر للتصويب وهي في الهواء.

- وبتصويبك ذاك جلبت إلينا ذلك الرجل.

صمت مراد لحظة وقال مغيرا الموضوع:

- كان أعداء الجبهة يخفون عداءهم، والآن صاروا يعلنونه. هكذا تتغير الأمور عندما تتبدل موازين القوة.
- أنا قلق على من وقفوا معنا، وما قد يطالهم من انتقام.
- لا أظنهم سينتقمون منهم، لو فعلوا ستتحول المنطقة إلى ساحات صراع جديدة، وهو ما لا يخدم الحكومة في وقت تبحث فيه عن ترسيخ أقدامها.

قبل غروب الشمس كانا قد اجتازا الوادي وصعدا منحدرًا إلى اليسار. عند القمة المنبسطة ظهرت أمامهما مزرعة صغيرة بجوار منزل، وعلى مقربة منه قطيع أغنام يقوده راعٍ نحو المنزل.

ترددا في الاقتراب خشية أن يبلّغ عنهما أهل المكان، لكنهما كانا بحاجة إلى من يرشدهم إلى الطريق الآمن جنوبًا.

بقي مراد مختبئًا بعيدًا حتى لا تكشفه الإصابة، وترك علي سلاحه لديه، فيما تقدّم متظاهرًا بأنه عابر سبيل. مشى من أمام المنزل متعمدًا المرور أمام راعي الغنم الذي كان يراقبه من على صخرة كبيرة جاثمة بجانب الزريبة. صاح به الراعي مناديًا:

- إلى أين أيها الشاب؟ وعمّ تبحث هنا؟

أجابه عليّ بعد أن حيّاه:

- أنا في طريقي إلى أقرب قرية في الجوار.

قال الراعي:

- ها قد حلّ المساء، فما عساك أن تفعل الآن؟ اقترب وحدّثني عمّا تريده بالضبط، علّي أستطيع المساعدة.

اقترب منه ليتحدث إليه عن قرب، قائلاً:

- أشكر لطفك، أتيت باحثًا عمّن يحتاج إلى راعٍ للغنم، فأنا بحاجة إلى عمل.

قال الراعي:

- هيا تفضل لنتحدث في الداخل بعد أن نأكل شيئًا، ألم تشعر بالجوع وأنت تجوب هذه الأراضي الغريبة عنك؟

أجاب عليّ:

- شكرًا لك، وبارك الله فيك.

دلفا إلى المنزل وقد اجتمعت الأسرة على ضوء السراج والتفّوا حول الحصير، يجلسون على فراش متواضع، وهم زوجة الراعي والولد الأكبر وثلاث بنات صغيرات. سلّم عليهم ثم انضم إلى مجلسهم مع الراعي. لم يجد صعوبة في تمييز أحوال هذه الأسرة وفقرها، فكل شيء يتحدث عن نفسه: حجم المنزل وبساطته، وأثاثه الذي لم يكن سوى قطع من قماش

وإسفنج جُمعت كيفما اتفق، ملابسهم القديمة والمهترئة، وجوههم الشاحبة، أجسادهم النحيلة. كل هذه الأشياء تضجّ بالفاقة البادية في كل شيء، إلا ابتساماتهم التي تنفصل عن واقعهم ولا تعبّر عنه كبقية الأشياء، كانت توحي بسعادة من يمتلك كل شيء.

بعد التعارف، حدثه رب الأسرة عن حياته: يرعى الأغنام، فيما تتولى زوجته وأطفاله المزرعة الصغيرة والبقرة، ويعتنون أيضًا بخلايا النحل. أنصت عليّ بإعجاب، يوزع نظراته على الوجوه البريئة. حدثه الأطفال عن أشيائهم وعن أنفسهم بعفوية، وسألوه بالعفوية نفسها عن حاله كلما صمت والدهم.

بادر عليّ بسؤال الراعي عن سبب وجود بيته في منطقة معزولة لا توجد بها منازل أخرى كما هي العادة. فأجابه بأنهم ليسوا معزولين تماماً، فهناك منازل أخرى بالقرب منهم خلف التلة الصغيرة المجاورة لمنزله، وتلك هي منازل قريةٍ مسكونة سيراها غداً صباحاً لو نظر خلف التلة. وقد فهم من عبارة "ستراها غداً صباحاً" أن الراعي قد قرر استضافته والمبيت لديهم.

سأله علي مرة أخرى:

- ولمَ منزلك أنت بالذات خارج هذا التجمع وليس بين بقية البيوت؟

أجابه الراعي:

- في الحقيقة، أنا لست من سكان القرية الأصليين، وقد جئت إليها شاباً صغيراً أعمل أجيراً لدى من يحتاج إليّ، ومكثت هنا سنوات

حتى قرر أهالي القرية تزويجي منهم. وهذه زوجتي (مشيراً إلى زوجته التي ابتسمت ابتسامة خفيفة)، وقد كان والدها كريماً للغاية، منحني هذه المزرعة الصغيرة والأرض المحيطة بها، ثم تعاون بعض أهالي القرية أيضاً على بناء هذا المنزل، فيما ساهم آخرون بمنحنا بعض الأغنام. ومضت الأيام حتى صارت الأمور كما تراها الآن؛ تكاثرت الأغنام وتكاثرت الأسرة أيضاً.

- يبدو أن أصحاب هذه القرية كرماء مثلك، فقد استضفتني وأنا غريب.
- ليس فيما فعلته كرمًا، بل هي عاداتنا وتقاليدنا، أيها الشاب... لكن قل، بما أنك تود العمل في الرعي، هل كنت راعيًا من قبل؟ حتى الرعي بحاجة إلى معرفة ودراية.

شعر عليّ أن في هذا السؤال فرصة لاكتشاف ما يريد فقال:

- نعم، آخر مرة عملت في رعي الأغنام عند أسرة، ترك ابنهم الرعي والتحق بالجبهة، لكنه ترك المقاومة وعاد إلى الرعي بضغط من والديه.

قال الرجل بأسف:

- لا أدري إن كان سينجو بسلام، أم سيصيبه أذى لتركه الجبهة.
- أي سوءٍ يمكن أن يصيبه؟
- لا أحد يعلم ما تخبئه لنا الأيام القادمة بعد الهزيمة!

- أي هزيمة؟
- هزيمة المقاومة وهل هناك غيرها؟
- وما الذي قد يصيبكم، وأنتم أناس بسطاء؟ أم أنك كنت منهم؟
- لا، لم يكن بإمكاني ترك بيتي وأطفالي، ولكن أقصد ما سيحل بنا حين تعود الأمور إلى سابق عهدها.
- أتعني أن حياة الناس بوجود الجيش، ستكون أسوأ من حياتهم تحت سيطرة المخربين؟

بدا الغضب على وجه الرجل وقال مستنكرًا:

- لماذا تسميهم مخربين؟ هل تعرفهم أم تردد ما يقوله أعدائهم؟

همَّ عليّ بالرد، لكن الرجل أضاف ولازال الحنق باديًا عليه:

- أو لعلك من تلك المناطق البعيدة التي ترسل إلينا الحملات للنهب والسلب؟ فأنا لم أسألك بعد من أين أنت؟

عندئذٍ وجد عليّ أنه لم يعد هناك ما يُلزمه بإخفاء نفسه ورفيقه، بل إن كشف الحقيقة بات أمراً ملحّاً لتهدئة الرجل الغاضب الذي لا يستحق إلا أن يكون مسروراً، فقال له: أنا آسف إن كنتُ أغضبتك، وآسف مرة أخرى لأنني كذبت عليك.

نظر الرجل إليه قاطباً حاجبيه، فما كان من عليّ إلا أن بدأ يشرح له بالقول: أنا لستُ راعيًا كما زعمت، بل مقاومٌ هاربٌ من آخر معاقل المقاومة.

وأضاف بأسى: مُنينا بهزيمة مؤلمة، فقدنا فيها كثيراً من رفاقنا، ولكني كنتُ مضطراً لادعاء ذلك لعدم علمي بموقفك تجاهنا، كما حدث معنا في الطريق، عندما صادفتُ أنا ورفيقي رجلاً أراد قتلنا حين تعرّف علينا، فأرجو أن تغفر لي عدم صراحتي معك.

انفرجت أسارير الرجل وتبدّد ضيقه وغضبه فسأل: تقول إنك كنتَ بصحبة رفيقٍ لك، وأنكما تعرّضتما لمحاولة قتل.. فأين ذهب رفيقك؟

أجاب علي:

- إنه مصاب، ويختبئ بالقرب من المنزل.

صرخ الرجل بصوت أفزعه:

- مصاب! وما زلت هنا أمامي؟ هيا اذهب وأحضره بسرعة.

أسرع علي إلى مراد فوجده ضجرًا من الانتظار. بعد أن أخبره بما حدث توجها إلى المنزل، حيث كانت زوجة الراعي قد أعدت عشاءً بسيطًا من العصيد وأقراص الذرة والحليب وكوب عسل.

في الصباح، استيقظ أصحاب البيت أبكر من الضيفين، وظلّ ربّ الأسرة ينتظر قبل الخروج بغنمه حتى يستيقظا. ثم أرشدهما إلى الطريق المؤدية إلى الجنوب بعد أن تناولا القهوة والفطور، وودّعاه بقلوب شاكرة، حاملين أجمل انطباع عن هذه الأسرة الكريمة.

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني والثلاثون

بعد سيطرة الجيش خيّم سكون ثقيل على المناطق التي كانت تضج بالصراع. تسلّل شعور بالمجهول إلى نفوس الناس، ولا سيما أولئك الذين أيّدوا الجبهة الوطنية. بعضهم تسلّم جثث أقاربه أو عثر عليها، والبعض الآخر ظلّ معلقًا بأسئلة لا جواب لها: إن كان القريب قد قُتل، فأين جثته؟ وإن نجا من الموت، فهل أفلت من الأسر؟ وإن نجا من كليهما، فأين اختفى؟

حل الخوف من المجهول مكان الخوف من الحرب إلى درجة اشتاق البعض إلى أصوات المدافع، وأزيز الرصاص، وصخب الطائرات. اختفت مظاهر الحرب إلا من تحركات الجيش المنتصر الذي يجول بمركباته هنا وهناك، وينشر أفراده بين المواطنين بحثًا عن فلول المقاومة.

انصرف قسم من الأهالي إلى أعمالهم اليومية اتقاءً لأي احتكاك هم في غنى عنه، فيما انشغل آخرون من الجانب الآخر بتعقب الفارين، ومراقبة ذويهم كي يدلوا بمعلوماتهم للحكومة. سادت حالة من التوجس والاستنفار، وبدا واضحًا أن المنطقة بحاجة إلى وقت غير معلوم للاستقرار والاعتياد على الظروف الجديدة، وأن هذا الوقت لن يمر دون أن تتخلله عمليات انتقام وصدامات بين إخوة صاروا أعداء.

❊ ❊ ❊

الفصل الثالث والثلاثون
1982- 1990

"صارت الأيام تتشابه في عدن."

قال مراد مخاطبًا علي، وهما يحتسيان المشروبات الساخنة ويتجاذبان أطراف الحديث في مقهى شعبي مزدحم بحي "كريتر"، في ليلة شديدة الرطوبة من صيف عام ١٩٨٢.

كانت أصوات الزبائن تختلط بأصوات عمال المقهى؛ جدالات لاعبي الورق والدومينو، ونقاشات سياسية حول أوضاع المنطقة والعالم، تتخللها النكات والضحكات.

الجزء الأكبر من المقهى مكشوف، تتناثر فيه مقاعد وطاولات خشبية على أرض ترابية، أما الجزء الآخر فمسقوف بصفيح مموج يستند إلى أعمدة خشبية، بجوار غرفة إعداد الطلبات.

في إحدى الزوايا جلس علي، وقد قصّ شعره الطويل الذي اشتهر به في المعسكر، بينما جلس مراد على الكرسي المقابل يدخن بشراهة، على خلاف علي الذي كان يدخن نادرًا.

خاضا في مواضيع عديدة وفجأة قال علي:

- كان تصرفك غريبًا... اعترضت في البداية على قتل الشاب الذي تحرش بفاطمة، ثم قتلته بنفسك!

- أخبرتكم عن السبب في حينه.
- هذا يعني أنك تعيد التفكير في الأمور... وربما تكون قد ندمت اليوم على قتلك لذلك الشاب.
- أحيانًا لا أحسب الأمور بشكل جيد. ولا أعلم الآن إن كنت قد أصبت أم أخطأت فيما اقترفته ذلك اليوم، خصوصا بعد أن شهدنا أهوالًا أكثر بشاعة.

تنهد علي وقال وهو يتطلع إلى البعيد:

- أفتقد الرفاق بشدة، لقد تركوا فراغًا كبيرًا في حياتنا.

هز مراد رأسه موافقًا، وبعد برهة من الصمت قال:

- أرى أن جميع رفاقنا حققوا غاياتهم ما عداي أنا وأنت... سعيد قال إنه لم يعد يحتمل حياته على ذلك الحال، وإنه سيموت راضيًا وهو يحارب من أجل القضية، وكان له ما أراد. وعبدالله أراد أن يثبت للجميع أنه رقم صعب، وأن يفرض هيبته واحترامه، وقد فعل. أما صديقك ذياب، فقد لعب لعبته وحقق غايته، وتخلص من شيخ القرية.

قال علي:

- ماذا عن علوش؟
- علوش... آه من علوش، لم أشعر يومًا أن لديه هدفًا محددًا، كأنه

يعيش لتحقيق أهداف الآخرين."

لم يرغب مراد بإفشاء اعتراف علوش له، فهو غير متأكد من أن غيره سيتفهم ما قاله، والأهم أنه لا يريد أن يجازف بإفشاء حقيقة لن تضيف شيئًا لأحد، لذلك آثر أن يحتفظ بسر علوش حتى لا تهتز صورته في عيون من أحبوه.

لاحظ علي شرود رفيقه فسأله:

- هل حققوا أهدافهم بالفعل؟ ألم يذهب موتهم سدى؛ إذا ما أخذنا الأهداف الوطنية بعين الاعتبار؟

قال مراد وقد أدرك مرارة الحقيقة التي يداريها:

- بالفعل... نحن نحاول الهروب من الاعتراف بفشلنا، ونتجنب مواجهة حجم الألم الذي سببه لنا فقدانهم.
- أو أننا نعزي أنفسنا بمثل هذه الادعاءات. الحياة ليست عادلة.

تنهد مراد بعمق وقال:

- لماذا نلقي باللوم على الحياة؟ إذا كانت الحياة هي السبب، علينا إذن أن نضع حدا لها؛ ما دامت لا تعدنا بشيء!

❊ ❊ ❊

الفصل الرابع والثلاثون

ثلاثة أعوام وبضعة أشهر مضت في عدن بشكل رتيب. شعر مراد خلالها بأنه يعيش على هامش الأحداث. يمارس عمله كضابط في الجيش بشكل اعتيادي، خال من الحماس. كان قد التحق بالقوات الشعبية في الماضي، قبل انضمامه للجبهة في الشمال، وبعد هروبه عاد لوظيفته وحصل على ترقيات متتابعة، بفضل نشاطه في الجبهة. الأمر ذاته حصل مع علي. التحق بقوات الأمن وحصل على رتبة عسكرية، لكنه لم يحصل على رتبة ضباط بعد.

رغم حاجتهما إلى السكينة بعد مرحلة الكفاح المرهقة وما رافقها من أحداث عصيبة، ظل عملهما الروتيني يبعث على الضجر. كانا خارج دائرة التأثير بعد أن اعتادا المساهمة في صناعة الحدث.

في تلك السنوات كان الهدوء يخيّم على البلاد شمالًا وجنوبًا، حتى بدا وكأن لا شيء يمكن فعله. لكن هذا الهدوء لم يدم طويلا؛ بحساب التاريخ. في يناير ١٩٨٦ انفجرت حرب بلا هوادة، قسّمت الجيش إلى نصفين. وجد مراد نفسه في مأزق: عليه أن يختار بين صفّ "الطغمة" أو "الزمرة". لم يجد معيارًا أخلاقيًا يبرر له الانحياز، ففي الحالتين كان سيوجه سلاحه نحو رفيق وأخ، بلا قضية عادلة يقاتل من أجلها، وبخسارة محققة للجميع. سالت الدماء، وتناثرت الجثث، وخلفت الحرب آلاف القتلى في أيام معدودة. عبثية هذه الحرب جعلته يعيد التفكير في الحرب التي خاضها مع الجبهة ضد الحكومة.

هل كانت حربًا عبثية أيضًا؟ سأل مراد نفسه.

أما علي فقد نجا من هذا المأزق. قبل الحرب بأسابيع أخبر صديقه مراد أن أرملة أخيه مهيب قبلت أخيرًا الزواج بعد إلحاح أسرتيهما، وكانت قد رفضت سابقًا كل من تقدم لها لأجل طفليها. ثم جاءه من والده طلب غريب: أن يجد وسيلة للتسلل إلى القرية ليتزوج من فتاة يعرفها ويعرف أهلها، وقد رتب والداه خطبتها سرًا. كان كثير من الرفاق في عدن قد تسللوا سرًا إلى قراهم، أمضوا وقتًا مع ذويهم، ثم عادوا دون أن يُكشف أمرهم، وهذا ما كان يأمله والده.

وافق علي، مقتنعًا بحسن اختيار أهله، كما أن زواج أرملة أخيه كان يستدعي أن تكون له زوجة تهتم بشؤون والديه والطفلين. لكن والده كان يخطط لأبعد من ذلك، فقد أراد أن تستقر زوجة ابنه معه في عدن على أمل أن تتغير الظروف ويعودوا جميعًا إلى القرية. وقد تحقق ذلك فعلًا بإعلان الوحدة بين شطري البلاد عام ١٩٩٠، حين عاد علي ومراد وآخرون إلى قراهم ليستقروا بين أهاليهم دون ملاحقات.

❊ ❊ ❊

الفصل الخامس والثلاثون
ديسمبر 1994

مع شروق الشمس تدب الحياة في القرية. العصافير تزقزق على الأشجار المبللة بالندى، والرعاة يسوقون أغنامهم إلى المراعي، والنساء يشعلن المواقد، فيتصاعد الدخان من فتحات الأسطح، ثم يتفرق في السماء حاملًا روائح الخبز الريفي الشهي. بعد الإفطار، تتجه أفواج الرجال والنساء والأطفال إلى الحقول، وقد ارتدوا أثقل ما لديهم من الثياب الشتوية.

في منزله في القرية استيقظ مراد باكرًا. كان قد أعد نفسه للسفر إلى صنعاء والبقاء هناك لفترة ليتابع وظيفته التي سلبت منه. منعه البرد القارس من الاستحمام، فاكتفى بغسل يديه ووجهه، وتبليل شعره بعد تنظيف أسنانه بالفرشاة. تناول فطوره ثم جهز أمتعته في حقيبة كتف متوسطة الحجم. قبل المغادرة بحث عن والده في أرجاء المنزل لتوديعه. سأل عنه أمه، زوجة أبيه العدنية، فأخبرته أنه قد خرج باكرًا، فعرف أين يجده.

اتجه نحو الحقل القريب، المحاط بالأعشاب والمرعى. وجد والده جالسًا يراقب أغنامه القليلة، يصفّر لها أحيانًا أو يقذف حجرًا أمامها ليغير مسارها بعيدًا عن الزرع. وقف خلفه، وقال بعد تحية الصباح:

- جئت لتوديعك قبل سفري، وأسألك إن كنت تحتاج شيئًا قبل ذهابي.

- تهدر وقتك عبثًا!
- تعلم أني لا أقبل الظلم على أحد، فلماذا أصمت عندما يقع عليّ؟
- لكنك تعرف النتيجة سلفًا.
- لابد من المحاولة. لا أستطيع الجلوس هنا مستسلمًا كالضعفاء. لا أتصوُّر أن طموحي ينتهي هنا.
- بوسعك أن تفعل ما هو أكثر، ولكن في زمن آخر وربما في مكان آخر. ليس ذنبك أن جذوة الثورة خبت في صدور الناس.

ودع مراد أباه، وقبل أن يبتعد سمع والده يقول:

- حين تيأس وتعود، ستجد كل شيء بانتظارك لتبدأ حياة جديدة: الأرض، الأغنام...
- ولماذا نعود إلى نقطة الصفر يا أبي؟ علينا أن نتطلع إلى الأمام.
- الواقع يفرض نفسه. حين تعجز عن تحقيق أحلامك، تجبرك الأيام على قبول المتاح. على كل حال... بما أنك تفكر في المستقبل فأنت في الثامنة والثلاثين، وحان وقت التفكير بأمر آخر.
- أستودعك الله يا أبي.

واصل طريقه بحثًا عن سيارة تقله إلى المدينة، ومنها إلى صنعاء، بينما يدور كلام والده في رأسه. يعرف أن عمله في الزراعة والرعي ضرورة فرضتها

الظروف، لا عودة للماضي، ويعلم أنه قد تأخر في الزواج، إذا أخذ في الاعتبار السن الذي يتزوج فيه شباب القرية، لكنه غير مستعد للزواج. لا شك أن تجارب والده في الحياة تفوق تجاربه، بيد أن كل هذا لا يناسب طبيعته وتجربته الخاصة، على الأقل في الوقت الحالي، ومع كل هذا يشعر أن الفرص قد تجاوزته، وأن الطموح وحده لا يكفي، بل يحتاج المرء إلى الحظ والقدرة على اقتناص الفرص... وهما ما لم يكن يملكه.

على الطريق الرئيسي توقفت سيارة تقل ناس القرى إلى المدينة. صعد إليها، وحيا الركاب، وألقى بحقيبته في الخلف، وجلس غارقًا في التفكير. كان اليأس يدفعه لتأمل أوضاع البلاد التي تزداد سوءًا. توقع أن تثمر التضحيات حياة أفضل، لكن لا أفق يلوح. الثورات والحروب مضت، وكل الدماء والتضحيات ذهبت هباءً!

لا يمر يوم إلا ويتذكر رفاقه: القائد علوش، الشاب النبيل الذي مزقته شظية هاون في معركة ضارية، فسقط الموقع بسقوطه. سعيد الذي اخترقته الرصاصات وهو يحاول النجاة بحياته، وعبدالله الذي مزقه لغم أرضي أثناء اقتحام أحد المواقع. وحده علي بقي من أعز أصدقائه. أما ذياب، فمفقود منذ ذلك اليوم؛ لم يُعرف إن كان قد قُتل، أو وقع في الأسر، أو نجا وهرب إلى مكان مجهول.

❊ ❊ ❊

الفصل السادس والثلاثون

كلما حلّ مراد في صنعاء، يلجأ إلى فندق قديم ورخيص قرب باب اليمن، يطل من الشرق على بيوت المدينة العتيقة. سعر الإقامة فيه مناسب لإمكاناته، وهناك يجد معارفه وأصدقاءه، وعلى رأسهم علي الذي لا ينزل إلا في الفندق نفسه. مع تكرار الزيارات، صار كلاهما معروفًا لمالك الفندق وموظفيه، فيحظيان بمعاملة خاصة.

ما إن وصل مراد هذه المرة، حتى تلقى مفاجأة سارة: كان علي قد سبقه إلى الفندق وحجز غرفة مفردة، فاتفقا على استئجار غرفة مشتركة. وجود علي سيعينه على تحمل البقاء لمدة أطول في صنعاء.

في عصر ذلك اليوم جلسا في المكان المخصص لمقيل النزلاء. بدأت الجلسة بنقاشات جماعية لفترة من الوقت، ثم تحولت إلى أحاديث جانبية.

قال علي مخاطبًا مراد:

- كما ترى! الناس ما زالوا يعوّلون على تغيير البلاد بأيدي من أفسدوها.
- نحتاج أولًا إلى ثورة وعي، قبل أي ثورة بالسلاح، ليعرف الجميع لماذا نحارب!
- الجهل يجعل الناس في الغالب يصطفون في جبهة ضد أنفسهم ومصالحهم.

- وهل كانت كل ثوراتنا ضرورية؟
- أترانا لا زلنا نناضل حقًا؟
- منذ سنوات ونحن نثرثر كثيرًا، ونفكر كثيرًا. لكن النضال لا يكون بالسلاح وحده.
- لم نعد شبابًا، ومع وجود القوى التي تقاتل من أجل مصالحها، لم يعد هناك حماس لأي ثورة.
- هناك خلط بين الحرب والثورة. ما زلنا ثوارًا كما كنا، لكننا فهمنا الحروب بشكل أوضح، خاصة بعد أن شهدنا حرب ١٣ يناير، ورأينا الآلاف يُقتلون بسبب حفنة من الأشخاص. ألم تكن حرب ١٣ يناير وجهًا آخر للحروب الوسطى؟
- أي ثورة جديدة يظل شبح سرقتها حاضرًا، وخطر تحوّلها إلى حرب تنحرف عن أهدافها قائم، كما حدث للثورات السابقة، ولثورات عديدة في العالم.
- يقول جيفارا: "إن الثورة..." (أكملا معًا) "يخطط لها العباقرة، وينفذها الشجعان، ويجني ثمارها الجبناء."

ضحكا معًا، فقد كان علي يحفظ مقولات جيفارا لكثرة ما كان مراد يرددها.

ساد صمت قصير، ثم قال علي:

- أكنت تفضل الاستشهاد على هذه الحياة؟

- إطلاقًا!
- إذن فالحياة مهمة في نظرك؟
- الحياة! أريد أن أجربها حتى النهاية، وأصارع من أجل البقاء، حتى في ذروة اندفاعي أثناء المعارك لم أكن أسعى للموت أبدًا.
- كنت أراك تقاتل بشجاعة تصل إلى حد التهور، فظننت أن الحياة ليست ذات قيمة لديك.
- نحن نقاتل من أجل الحياة لا من أجل الموت.
- وهناك من يختار الموت في سبيل القضية التي يناضل من أجلها.
- ربما التبست عليهم المفاهيم بفعل الشعارات التي تمجّد الموت والتضحية. لكن أن يتحوّل الموت إلى غاية بحد ذاته، فهذا انتحار. من لديه قضية لا يطلب الموت أبدًا، فطالما هو حيّ، هناك فرصة لتحقيق هدفه. أما بالموت، ينتهي كل شيء.
- وماذا لو كان الموت ضروريًا لتحقيق غاية نبيلة؟

هز مراد كتفيه باستغراب وقال:

- حين تجازف بحياتك وأنت مدرك لاحتمال موتك في سبيل غاية نبيلة، فهذه شجاعة، وسيكون لموتك معنى إذا تحققت تلك الغاية. أما أن تقدم نفسك قربانًا وتسعى إلى الموت بحجة الضرورة، فهذا انتحار. يخيل إليّ أن الساعين إلى حتفهم في الحقيقة مجموعة من

اليائسين أو المشوشين، والبطولة عندهم مجرد وهم. تذكر يوم "الفجر الدامي" في اليوم الأخير من الحرب؛ بذلنا كل ما في وسعنا للخروج أحياء، فهل كان ذلك جبنًا؟ لقد تصرفنا على سجيتنا. هناك من يروّج لفكرة الموت وتقديسه، وينسج حوله الأساطير لدفع الناس إلى حروبهم الخاصة.

صمت مراد للحظة ثم سأل علي:

- ماذا عنك هل تقدس الموت؟

ابتسم علي وقال:

- ربما كنت كذلك، ربما كنت واحدًا ممن اختلطت عليهم الأمور.

❊ ❊ ❊

الفصل السابع والثلاثون

اليوم هو الرابع لمراد في صنعاء والخامس لعلي. كانت الساعة تشير إلى السابعة والنصف صباحًا. بدأت الشوارع تضج بالحركة وجموع الناس تتزاحم عند الحافلات وعلى الأرصفة. الحافلات مكتظة بالركاب، والأرصفة تضيق بالمارّة. أمام بوابة الفندق وقبل أن يتجها إلى الوزارتين اللتين تتولى كل منهما أمر وظيفتها المفقودة، قال مراد وهو يخطو بجانب علي:

- نلتقي بعد الظهر في مطعم السلتة[٦] نفسه. إذا استعدتُ وظيفتي وراتبي فالغداء على حسابي، وإلا فكن مستعدًا للدفع. هذه آخر محاولة لي، إن لم تسر الأمور كما أرجو فسأعود إلى القرية.

ابتسم علي وقال:

- سنغادر معًا إذن، فأنا أيضًا لا أتوقع جديدًا من متابعة معاملتي.

قضى مراد ساعات مرهقة في مكاتب الوزارة، يحاول إقناع المسؤولين بعدم قانونية إيقافه وزملائه عن العمل، ويشرح الإجراءات التي كان ينبغي اتباعها لاستعادتهم لوظائفهم. لكن النهاية كانت صراخًا وتبادلًا للاتهامات، وإدراكًا قاسيًا بأن القانون شيء، والواقع شيء آخر... وأن ما يقوله يضيع هباءً في بلد لا يحكمه الجهلة، بل يحكمه الجهل نفسه.

---

(٦) السَّلْتَة: وجبة شعبية يمنية أصيلة، تُعتبر من الأكلات الرئيسية في صنعاء والمناطق الشمالية خصوصًا.

خرج من المبنى وقد حسم قراره بالعودة إلى القرية في الغد. سار نحو محطة الحافلات وهو منشغل بالتفكير بما سيقوله لوالده. من المؤكد أن صديقه قد تحرك نحو المطعم الذي اعتادا على تناول الغداء فيه مرة على الأقل في كل زيارة إلى صنعاء.

ركب حافلة مزدحمة، وفي شارع الزبيري طلب من السائق التوقف عند زقاق صغير يؤدي إلى منطقة الصافية. ترجل وأكمل المسير على قدميه. كان مراد، بطبيعته الحذرة وعشقه للاستكشاف، يراقب كل ما حوله: المحلات، واجهات البيوت القديمة، السيارات، المارة، حتى الكلاب الضالة والقمامة الملقاة في الشوارع.

وبينما هو كذلك استقرت عيناه على مجنون جعله يقف جامدًا بلا حراك. لم يصدِّق ما رأى. وقف مشدوهًا يتفحص ذلك المجنون بثيابه الرثة والممزقة وشعره الطويل ولحيته الكثة وجسده الهزيل، وبطانية يحملها على كتفه. كان المجنون يدور في مساحة ضيقة جيئةً وذهابًا، يلوح بيديه ويهذي بكلام محذرًا ومتوعدًا، ويشير إلى عيون منتشرة في الفراغ، تراقبهم وترى كل شيء. ظل يردد:

"من يصدق هؤلاء... سيعيش في الظلام!"

خفق قلب مراد بقوة. تيقن أنه هو. اقترب منه مذهولًا، فارتد الرجل إلى الخلف وثنى ذراعيه أمام وجهه كمن يتقي ضربة. أمسك مراد بمرفقه برفق،

وعيناه دامعتان رغم الرائحة الكريهة التي تفوح منه. وضع وجهه بين كفيه وقال بصوت متهدج:

"تعال معي. لابد أنك جائع."

تمنع المجنون، فقال مراد:

"هيا، سنلتقي بعلي، وستأكل ما تشاء من طعام. لن تجوع، ولن تأكل قرص الذرة بعد اليوم."

أمسك بيده ليرافقه، لكن ذياب أفلت يده منه بخفة، وأشار إلى المارة وهو يصيح:

"لا تصدقوهم... سيقودوننا إلى الظلام."

ثم اندفع هاربًا. خطا مراد وراءه بضع خطوات وهو يحاول الإمساك به ثم توقف. خشي أن يزيد الموقف سوءًا إن هو ألح عليه، فتركه يبتعد حتى غاب عن نظره.

راح يسأل أصحاب المحلات وسكان المنطقة عنه. أخبروه أنه يتواجد هناك كثيرًا، يختفي ساعات أو يومًا ثم يعود. تنهد مراد بارتياح، وشكرهم على المعلومات، ثم تابع طريقه نحو المطعم، وقلبه يثقل كلما تذكر ملامح ذياب المضطربة. كان فرحًا برؤية ذياب لكن الخوف من فقدانه مجددًا يعصف به، والندم على تركه يبتعد ينهش صدره.

لم يشعر إلا وهو أمام مطعم السلتة. جلس قبالة علي، الذي كان منهمكًا

بتناول الغداء دون أن ينتبه لوصوله، وكأن الصدفة هي التي قذفت به إلى طاولته.

قال علي وهو يضع لقمة في فمه:

- آسف يا صديقي، تأخرت كثيرًا، وبلغ بي الجوع حدًا لم أستطع معه انتظارك.
- لا رغبة لي في الأكل. قال مراد بوجه شاحب.

مدَّ علي عنقه يتأمل ملامح صديقه، وعينيه الزائغتين، وأصابعه تعبث بشعره. سأله:

- ما بك؟ هل أنت مستاءٌ من شيء حدث بالوزارة؟
- وجدته في حالة يرثى لها. مختل عقليًا!
- وجدت من؟!
- ذياب. كان بين يديّ وفر هاربًا مني.

لم يستوعب علي ما سمع فحرك رأسه بسرعة كمن ينفض غبارًا وقع عليه:

- ذياب من؟

أجاب مراد بضيق:

- وجدت صديقنا ذياب في الشارع، وهو يعاني من الجنون.
- أين وجدته؟ هل أنت متأكد أنه هو؟

قصّ عليه مراد ما جرى، فأزاح علي وعاء الطعام من أمامه وقد انسدت شهيته. قال بصوت ثقيل:

- بما أن عودته محتملة، كما أخبروك، فهناك فرصة للعثور عليه.

خرجا من المطعم، وفي طريقهما إلى الفندق لأخذ قسط من الراحة، مرا بالمكان الذي شوهد فيه ذياب آخر مرة. بعد ساعتين، غادرا الفندق بعد العصر، وسارا عبر الأزقة نحو محطة الحافلات، متجهين إلى حيث عُثر على ذياب سابقًا، على أمل أن يعود إلى الموقع نفسه ليتمكنا من إقناعه بالذهاب معهما، ثم الترتيب لإرساله إلى مصحة الأمراض العقلية في عدن.

كان مراد قد اقترح أن يعيدا ذياب إلى قريته ليبقى بين أهله، على أن يتكفلوا هم بعلاجه في المصحة، لكن علي ذكّره بالثأر المحتمل بينه وبين عائلة الشيخ مسعود، وهو ما يجعل حياته هناك غير آمنة حتى وهو فاقد لعقله.

ركبا حافلة صغيرة، وكلٌّ منهما يحدق عبر النافذة أمامه، علّه يلمح ذياب بين المتسولين والمارة، وباعة الخضار على العربات الصغيرة، وباعة الملابس المستعملة، فيما تتعالى أصوات الميكروفونات المروّجة لبضائعهم. شاهدا الكثير من المجانين بحالات متباينة: من يقف مخاطبًا أشخاصًا غير مرئيين، ومن يجلس على الرصيف، ومن يركض بلا وجهة.

ترجلا من الحافلة أمام مدخل الشارع المقصود، دفعا الأجرة، وسارا باتجاه الموقع الذي يُحتمل أن يوجد فيه ذياب، لكنهما لم يجداه. بحثا في أرجاء

المكان وسألا بعض المارة، إلا أن أحدًا لم يره منذ مغادرته الأخيرة.

قررا الجلوس في مقهى قريب يراقبان منه الشارع. قال علي، وهو يرتشف كوب الشاي الساخن:

- هل يساورك شعور بالذنب بعد خلافك القديم معه؟
- عاملته بقسوة حينها، لكني أحببته مثل بقية الرفاق. ثم إن ذياب تغيّر بعدها، وأثبت شجاعته وإخلاصه للقضية. رأيته وهو يركض نحو عبد الله حين أصابه اللغم أثناء الزحف، غير آبه بالقصف.

ظلّا يتحادثان حتى الغروب، ومع مرور الوقت والمكان خالٍ من ذياب، تزايدت مخاوفهما من أنه لن يعود. لم يتوقف مراد عن التدخين، بل ازدادت شراهته مع القلق، حتى أنه لا يطفئ سيجارة إلا ليشعل أخرى. راقبه علي بضيق، لكنه كفّ عن نصحه بعدما يئس من إقناعه بالتوقف أو حتى التقليل من التدخين. سأله:

- لم تخبرني بما حدث معك في الوزارة، كما لم تسألني عما جرى معي؟
- "نحن أحمقان؛ نكرر الفعل نفسه ونتوقع نتيجة مختلفة كل مرة.

أُعجب علي بالتشبيه، ووافقه على أنهما أهدرا الوقت والجهد في محاولة تغيير النتائج مع الأشخاص أنفسهم. وبين حين وآخر، كان أحدهما ينهض لتفقد المكان، لكن دون جدوى. ومع اشتداد البرد وتأخر الوقت، يأسا من

عودة ذياب ذلك اليوم، فقررا العودة على أن يبدآ البحث صباح الغد. غادرا المقهى وقد امتلأت منفضة السجائر بالأعقاب.

في العاشرة صباحًا من اليوم التالي اتجها إلى المكان نفسه. ووصلا وكان ذياب أول ما وقعت عليه أعينهما، جالسًا على الرصيف يحدث نفسه. اقترب منه مراد فحاول الفرار، لكنهما كانا مستعدين لتلك اللحظة. طوقاه وأمسكه علي بقوة. قال له مهدئًا:

"لا تخف. نحن أخوتك."

وضمه إلى صدره قائلًا:

- هل عرفتني؟ أنا علي.

التفت إليه وقد هدأ بشكل غريب. لم يحاول التملص. قال:

- أعرفك... أنت منهم!

ثم أشار إلى مراد وقال:

- وهذا منهم... اتركوني، سيقبضون علينا جميعًا.

ثم اقترب من علي وهمس:

- دعوني أذهب قبل أن يرونا.

قال علي بنبرة مطمئنة وكأنه يخاطب طفلًا:

- لن يراك أحد. سنذهب بعيدًا إلى حيث لا يرانا أحد... بعيدًا جدًا.

همس ذياب بدوره:

- هم في كل مكان... لا مهرب... ابتعدوا عني، عيونهم تراقبني في كل مكان.

- ما من أحد يراك سوانا، هيا معنا. سنذهب إلى مكان مغلق، ليس فيه سواي أنا وأنت ومراد. هيا.

تأمل وجه علي، ثم مراد، وبشيء من التردد مضى معهما في هدوء.

العثور على ذياب، حتى وهو في هذه الحالة، يعد أكبر إنجاز لهما منذ هروبهما إلى عدن، وسط حياة حافلة بالإخفاقات واليأس.

أوقفا سيارة أجرة. ظل ذياب شارداً طوال الطريق، يتملكه خوف يزداد كلما ابتعدوا أكثر. في غرفة الفندق بالدور الثالث، بقي علي معه يحاول طمأنته، بينما خرج مراد مسرعًا إلى أقرب محل ملابس في السوق الشعبي المجاور. اشترى ملابس جديدة تناسب جسد ذياب النحيل، بعد المحنة التي لا يعرفان كيف مرت عليه طوال تلك السنوات.

حاول علي إقناعه بالاستحمام، لكنه ظل صامتًا، زائغ البصر، لا يرد ولا يتحرك، وعيناه تجوسان في أرجاء الغرفة باحثًا عن العيون المتربصة.

بعد نصف ساعة، عاد مراد حاملًا كيسًا من الملابس وكيسين آخرين مليئين بالطعام من مطعم أسفل الفندق. دخل الغرفة، لكنه لم يجد أحدًا. وضع الأكياس، وجال ببصره، فرأى ملابس ذياب مكوّمة في زاوية الغرفة. خمن أنه

يغتسل في الحمام الخارجي المشترك مع الغرف الأخرى، كما هو حال الفنادق الرخيصة التي تفتقر إلى حمامات خاصة وإلى مصاعد أيضًا.

جلس على طرف سريره ليستريح، وهو يسعل من أثر الجهد الذي بذله في المشي وصعود الدرج.

بعد دقائق، دخل علي إلى الغرفة وهو ممسك بيد ذياب. كان خصر ذياب مغطّى بمنشفة تصل إلى ركبتيه، بينما بقي جسده العلوي عاريًا، تفوح منه رائحة الصابون والشامبو، وتبرز أضلاعه وعظام ترقوته وكتفيه. الله وحده يعلم كم عانى من الجوع والبرد والحرمان طوال تلك السنين.

قال علي وهو يتفحصه:

- هناك آثار طلقة أعلى الركبة قليلًا... على الأرجح أُسر وهو مصاب.

نظر مراد إلى رأس ذياب ولحيته فقال بكلمات يقطعها السعال:

- حممته بنفسك وقصصت شعره أيضًا... رائعٌ أنت... وعظيم يا صديقي.

ناول مراد كيس الملابس لعلي وهو يواصل السعال:

- أكمل جميلك وألبسه هذه. كنت أود أن يتناول الطعام أولًا، ولكن... ليرتدي الملابس... ثم يتناول الطعام.

سأله علي بقلق:

- هل أنت مريض؟ تسعل بشدة ويبدو على وجهك المرض.

أجاب مراد:

- لا عليك، إنه الإرهاق والسهر.

لاحظ مراد التغير الكبير الذي بدا على ذياب بعد الاستحمام وارتداء الملابس الجديدة وقص شعره. ابتسم وهو يقارن صورته الآن بتلك التي رآه فيها مؤخرًا، لكن الماء والصابون والملابس الجديدة وقصة الشعر لم تتمكن من إزالة أثر الجنون من ملامح وجهه. أمعن النظر في عينيه، وجد فيهما الحزن والتعب والخوف مجتمعة، وكأنها خلاصة سنوات طويلة من المعاناة والعذاب والموت البطيء. فكّر أن سعيد وعلوش وعبدالله كانوا أوفر حظًا، إذ ماتوا مرة واحدة فقط.

لم يمكثوا طويلًا بعد تناول الطعام. جمعوا حاجياتهم وتوجهوا سيرًا إلى محطة سيارات الأجرة القريبة من باب اليمن، في شارع تعز. كان علي مشغولًا بحساب تكاليف الرحلة والعلاج؛ فالمبلغ الذي بحوزتهما يكفي للوصول إلى عدن ويزيد قليلًا، وهناك سيتكفل أصدقاؤهما بتأمين ما تبقى. أما مراد، فكان غارقًا في التفكير في إمكانية شفاء ذياب، والعقبات التي قد تواجه دخوله المصحة.

في تلك الأثناء، بدأ ذياب يتوتر ويتمتم بعباراته المعتادة. فجأة، باغتهما وانطلق يعدو في الاتجاه المعاكس بأقصى سرعته. ركضا خلفه وسط دهشة المارة، والسيارات التي كانت تتقطع بينهما وبينه. كادا أن يمسكا به، لكنه اندس وسط الزحام الكثيف عند البوابة المؤدية إلى سوق الملح، ثم اختفى.

شقّا طريقهما بين الجموع، يدفعان الناس جانبًا، وأعينهما تبحث عن أثر لذياب. وصل علي أولًا إلى السوق المرصوف بالأحجار، وتبعه مراد الذي ظل يدور حول نفسه، يتلفت ويسعل بلا توقف. بحثا في المنطقة بأكملها، وحين يئسا من العثور عليه، عادا إلى الفندق بخيبة أمل، وسط نظرات الاستغراب من موظف الاستقبال.

طلبا من الموظف التحدث مع المدير لتأجيل دفع إيجار الغرفة، وأوضحا حاجتهما للبقاء أيامًا إضافية.

في اليوم التالي، استيقظا مرهقين بعد ليلة طويلة من الأرق، زادها نوبات السعال المتقطعة التي أصابت مراد حتى الفجر. ومع ذلك، دفعا نفسيهما للخروج والبحث مجددًا، لكن دون جدوى. وحتى لو عثرا عليه، فقد يفر مرة أخرى، مما يجعل السيطرة عليه أمرًا شبه مستحيل.

مضت عشرة أيام أخرى في البحث والسؤال في أرجاء المدينة. وفي صباح اليوم العاشر، وأمام المحل نفسه الذي شاهداه قربه أول مرة، أوقفهما رجل مسن يملك متجرًا كبيرًا للمفروشات، وسألهما عن سبب بحثهما عن "مجنون" يعيش هنا منذ سنوات. أخبراه أنه قريب لهما وأنهما يريدان إعادته للبيت وعلاجه. تعجب الرجل من اهتمامهما بعد كل هذا الغياب، فأجاباه أن أحدًا لم يكن يعلم بمكانه. بدا فضوله متزايدًا بطرح المزيد من الأسئلة، لكنه لم يجد منهما فرصة لحديث أطول، فودعاه وابتعدا.

وبينما هما على الرصيف، اقترب منهما شاب أنيق وسألهما إن كانا ما زالا

يبحثان عن ذلك "المجنون". أجابا بالإيجاب، فقال بثقة:

- لا شك أنه الآن في مدينة عمران.

تبادلا نظرات الريبة، فسأله علي:

- وكيف تجزم بذلك؟ هل تعرفه؟ ولماذا لم يخبرنا أحد من سكان الحارة بهذا من قبل؟

أجاب الشاب بثقة:

- لأنهم غير مهتمين به.

سأله مراد:

- ولماذا أنت مهتم به؟

- أنا مثلهم لا يعنيني أمره، لكنني أعرف هذه المعلومة عنه.

سأله مراد:

- هلّا وضحت أكثر؟

أجاب الشاب:

- أحيانًا يذهب إلى تلك المدينة يمكث أيامًا ثم يعود.

قال علي:

- لكنهم أخبرونا بأنه لا يغيب طويلًا، وها قد مضت عشرة أيام ولم يرجع.

رد الشاب:

- أتظنهم يفتقدونه لدرجة إحصاء أيام غيابه؟ أنا أمر من هنا يوميًا في طريقي إلى الجامعة، وأراه صباحًا عندما يكون هنا.

اعترض عليّ:

- وكيف لمجنون أن ينتقل إلى مدينة أخرى، وليس له أهل هناك! ومن أين له أجرة السيارة؟

رد الشاب بنبرة ضيق:

- أحاول أن أشرح لكما، لكن أسئلتكما المتلاحقة لا تتركني أكمل. كان في البداية يطلب من السائقين أن يقلّوه، فيرفضون بسبب حالته، إلى أن عرفه صاحب شاحنة صغيرة يأتي لنقل بضاعته من مخازن أحد الوكلاء الذين أعرفهم في هذه الحارة. رقّ قلبه له، فصار يصحبه بلا مقابل، ويعيده حين يقرر العودة.

بدت القصة غريبة، لكنها فتحت بابًا للأمل.

سأل مراد: ولماذا عمران بالذات؟

أجاب الشاب: وهل يُسأل المجنون عمّا يفعل؟

قال علي: المهم، كيف يمكن العثور عليه هناك؟

قال الشاب: إما أن تنتظرا عودته أو تذهبا إليه.

قال مراد: لن ننتظر أكثر. هل هناك مكان محدد في عمران يمكننا أن نجده فيه؟

قال الشاب: أتعرفان المدينة جيدًا؟

أجاب مراد زرتها مرة واحدة، زيارة خاطفة، وماذا عنك؟

رد الشاب: أعرفها، وأعرف أين تقع محلات ذلك التاجر.

قال علي: أيمكنك مرافقتنا لترشدنا إليه؟

قال الشاب: أنا طالب، ولا يمكنني التغيب عن الدراسة.

قال مراد: ليس اليوم، غدًا الخميس، نسافر بعد الظهر والعودة يوم الجمعة، وتكاليف الرحلة علينا.

فكر الشاب ثم قال: جيد، إذا كان لديكما ما يكفي لتغطية نفقات الرحلة لثلاثة أشخاص.

تبادل مراد وعلي نظرة صامتة في إشارة إلى أن المال الذي بحوزتهما لا يكفي. قال مراد:

سفرنا جميعا أفضل، لكن المال الذي لدينا لا يكفي لثلاثة.

قال الشاب: إذن سأكتب لكما العنوان وتذهبا معًا.

هذا المقترح جعلهما يثقان في مصداقية الشاب، لكن مالهما لم يكن ليغطي تكاليف رحلة لاثنين، وهناك احتمال ألا يتعرفا على المكان هناك. هنا اقترح علي قائلًا:

- أيمكنك الذهاب بمفردك؟ ستعمل لنا معروفًا وسنغطي تكاليف رحلتك.

أبدى الشاب التردد ثم قال:

- يصعب أن أرفض مساعدة محتاج.

ناوله مراد المال اللازم للرحلة، وأضاف إليه مبلغًا تحسبًا لأي طارئ، ثم زوده برقم هاتف الفندق للتواصل، واتفقوا على أن يتقابلوا بعد صلاة الجمعة في المكان نفسه لاستلام ذياب. وعده عليّ بمكافأة سخية عندما يصلان إلى عدن، لكن الشاب شكره، وأخبره بأن لا حاجة لذلك.

لم يكن بإمكانهما تفويت هذه الفرصة؛ إحساسهما بالواجب تجاه ذياب دفعهما للثقة بالشاب حتى لو أفضت المحاولة لخسارة ما دفعاه له.

بطبيعة الحال لم يبحثا عن ذياب يوم الخميس. هيئا نفسيهما للسفر فورًا إلى عدن حال عودة الشاب برفقة ذياب. فإن لم يعد سيبحثان لمرة أخيرة في صنعاء، ثم سيغادران كلٌ إلى قريته، وربما يعاودان البحث بعد فترة من الزمن.

مضت ساعات اليوم بطيئة ثم مر صباح الجمعة دون أن يتلقيا اتصالًا من الشاب. بدأ القلق والشك يساورهما. سألا موظف استقبال الفندق مرات عدة فأخبرهما أنه لم يتلق أي مكالمة تخص أيًا منهما. ذهبا لصلاة الجمعة في جامع الشهداء، ثم تحركا بعجالة إلى المكان المتفق عليه. سارا في الشوارع شبه الخالية في مثل هذا الوقت إلا من العائدين من الجوامع باتجاهات مختلفة. هناك تفحصا الشارع بدقة وهما يمنيان نفسيهما بأن مانعًا قد حال

دون اتصال الشاب وأنه سيظهر أمامهما في أي لحظة وذياب برفقته. جلسا في المقهى القريب يتحدثان حتى العصر. ومع مغيب الشمس تبخر أملهما وأدركا أن الشاب احتال عليهما.

خرجا من المقهى وجلسا على الرصيف مطأطئي الرأس. قطع مراد حالة الصمت بقوله:

- هذا ما كان ينقصنا!

تنهد علي ثم قال:

- كنت محقًا عندما قلت قبل أيام بأننا أحمقان.

ضحك الاثنان وقال مراد:

- لم يكن ذلك رأيي أنا.
- من الرائع أن نجد شيئًا يدعو للضحك، حتى لو على أنفسنا، ونحن في أسوأ حالاتنا.

لكن المزاح سرعان ما انقلب إلى شعور بالخيبة؛ فكرة أن ذياب ضاع إلى الأبد كانت كابوسًا.

تلك الليلة، لم ينم مراد من شدة السعال وضيق التنفس. وقضى علي الليل يلح عليه بالذهاب إلى المستشفى. وفي الصباح، ظل مراد على عناده، وأصر على مغادرة صنعاء والعودة إلى قريته.

❊ ❊ ❊

الفصل الثامن والثلاثون

بعد ثلاثة أشهر من عودته من صنعاء، كانت حالة مراد الصحية قد تدهورت. حاول والده خلال تلك الفترة إقناعه بزيارة طبيب مختص، لكن كل محاولاته باءت بالفشل.

كانت الساعة الثالثة عصرًا عندما دخل الأب غرفة ابنه ليطمئن عليه بعد اشتداد نوبة السعال. وجده متدثرًا بلحاف وهو في حالة شديدة من الأعياء. أمسك بيده فأفزعته سخونة جسده. ولما حاول مجددًا إقناعه بزيارة الطبيب قال مراد بصوت واهن يتخلله السعال:

- لم تعد بي قوة للنهوض يا أبي... والأمر لم يعد بيد الطبيب، بل بيد الله.
- لا تكابر. هيا سنحملك إلى المستشفى.

نادى ابنه الأصغر وطلب منه إحضار سيارة بسرعة، لكن مراد لوح بيده قائلًا:

- لا فائدة يا أبي... ذهبتُ إلى أكثر من طبيب دون علمكم.

صرخ الأب:

- لا تضطرني لحملك بالقوة!
- أبي، كنتَ على صواب في كل خلافاتنا، إلا في أمر واحد... الزواج. لو أنني تزوجت، لتركت زوجة وأطفالًا بلا سند.

- لماذا تعذبني بهذا الكلام؟ أطعني يا بني، كف عن عنادك.
- لا تلح علي يا أبي، الجدال يتعبني أكثر. لن أوصيك بأمي وإخوتي، ولن أوصيهم بك، فأنا على ثقة أنكم ستعتنون ببعضكم.

وقبل أن يقول والده شيئًا أخرج مراد من تحت الوسادة ظرفًا وناوله:

- هذه رسالة لصديقي علي الحاج... أرجوك أن توصلها إليه.

دخلت زوجة أبيه وأخته، التي جاءت لزيارته، وجلستا بجانبه. مسحت زوجة أبيه على شعره بحنان وهمست:

- ما الذي يؤلمك يا بني؟ ماذا يمكننا أن نفعل لأجلك؟

أجاب مراد:

- فقط كونوا بخير... ولا تحزنوا.

تركوه ليستريح، وبقيت أخته بجواره. وفي المساء فكر الأب في استدعاء علي لزيارته ومحاولة إقناعه بالعلاج. أرسل ابنه الأصغر صباحًا إلى قرية الخشعة ليخبر علي بحال مراد. لم يتأخر علي، وجهز نفسه مسرعًا، ثم مضى مع الرسول إلى بيت صديقه.

حين وصلا في العاشرة صباحًا، كان والد مراد جالسًا باكيًا أمام جسد ابنه المسجّى على الفراش، يردد بصوت متهدج:

"مسكين أنت يا ولدي... لم تعش حياتك كما ينبغي، ورحلت عنها مبكرًا. تركتك الحياة يتيمًا بلا أم، واليوم تتركها بلا زوجة ولا أطفال.

رحمك الله يا بني."

ساد المكان صمت ثقيل يقطعه البكاء المكتوم. وقف علي مستندًا إلى الجدار، يختنق بدموع لم يستطع أن يذرفها.

بعد الدفن، وفي مجلس العزاء، جلس علي بجانب والد مراد. أخرج الرسالة وناوله قائلًا:

"أوصاني بتسليمك هذه الرسالة، ظننت أن أمامه من الوقت ما يكفي لتتحدثا بما شئتما."

فض علي الرسالة ليقرأ آخر كلمات رفيق دربه، لكنه تراجع ودسها في جيبه، مؤجلًا قراءتها إلى وقت يتهيأ له الجو الملائم.

في مساء ذلك اليوم، عاد إلى قريته، دخل غرفته وأغلق الباب. جلس على سريره، أخرج الرسالة وشرع يقرأ:

"صديقي العزيز:

أشعر بحاجة إلى محادثة أخيرة معك. كنتَ دائمًا أفضل من يستمع وأصدق من يتحدث. تحدثنا مرارًا عن الهروب الذي صار عنوان حياتنا، بين هروب إلى الأمام وعودة قهرية إلى الوراء.

نحن أبناء الهروب، رحلة هروب طويلة لم يبدأها أبي حين هاجر إلى عدن، للخلاص من ظروف الحياة القاسية في القرية. رحلة هروبنا تمتد لمئات من السنين. وكانت لنا محطات عديدة نحاول فيها

النجاة. ولم يكن انضمامنا إلى الجبهة إلا واحدة من تلك المحطات. أملي أن يكون موتي هو المحطة الأخيرة في هذا القطار الطويل.

لم يكن هروبنا فرارًا من واقعنا البائس، بل محاولة لمواجهته. هربنا من تحت قيادة سيئ الذكر أبو مطيع لنستمر بالكفاح، ثم هربنا معًا في معركتنا الأخيرة التي بددت آمالنا. نجوْنا من ٨٦ و٩٤، لكن الوطن لم يُشف بعد. ذياب تركنا أيضًا هاربًا إلى المجهول. واليوم جاء دوري لأهرب... لكن هذه المرة بلا إرادة مني.

أتذكر حين سألتني: أكنت تفضل الموت وأنت تحارب؟ قلت لك آنذاك: لا، بل أريد أن أعيش وأقاتل من أجل الحياة. لو سألتني اليوم لأجبتك بغير ذلك. لم أعد قادرًا على مواجهة كل هذا الخراب. أصبحت فرص النصر معدومة، والثورات التي حلمنا بها سقطت أمام أطماع الانتهازيين، تحولت إلى صفقات، ونهشتها مخالب الفاسدين، وذهبت تضحيات ودماء الشهداء أدراج الرياح، ولم يبق منها سوى شعارات تعبث بمشاعر وعواطف الناس لتحريكهم ضد بعضهم.

أعترف لك، وأنا أسعل دمًا في ساعاتي الأخيرة، بحاجتي لعملية هروب أخيرة، وقد جاءتني على الموعد، فلم أعد أحتمل رؤية فشل ثورة أخرى، تنتهي بطاولة على جثث ودماء ضحاياها، بصفقة جديدة وتسوية بين المتحاربين... كما لم أعد أحتمل الآلام التي

يسببها لي سرطان الرئة.

لا تحزن ولا تشفق عليّ. لم أسعَ للموت كما قلت لك، سعينا للحياة ورفضتنا، وها هو الموت يفتح ذراعيه لا بطلقة رصاصة أو قذيفة ولا بانفجار لغم... مع ذلك، ربما يكون حالي أفضل من ذياب ومن المخفيين قسريًا، أولئك الذين يموتون في صمت كل يوم."

(صديقك مراد)

أنهى علي القراءة والدموع تبلل عينيه. أعاد الرسالة إلى جيبه وشعر أن الدنيا خلت من ساكنيها برحيل أعز رفاقه، الرجل الذي زرع فيه الأمل لسنوات، ثم تركه بكلمات ملؤها اليأس.

وبينما غرق في دوامة التفكير، مترددًا بين بداية جديدة قائمة على الأمل أو هروب آخر إلى الأمام، تذكر أن خلف الجدار في الغرفة المجاورة طفلين ينامان ببراءة... طفلين جديرين بأن يولد الأمل من أجلهما، أو لعلّهما يخلقانه بإرادتهما.

ـ تمت ـ

❊ ❊ ❊